

سلسلة الأعمال المجهولة

الدكتور خليل سعادة بدر الحاج

سلسلة الأعمال المجهولة

خليل سعادة
الدكتور



هذا الكتاب

لا يزال التراث الفكري للدكتور خليل سعادة مجهولاً لغالبية قراء العربية، فقد نشر القسم الأكبر منه في المغرب الأمريكي الجنوبي (الأرجنتين والبرازيل) حيث أمضى الدكتور سعادة ما يقارب العشرين عاماً (١٩١٤ - ١٩٣٤).

والدكتور خليل سعادة هو والد انطون سعادة زعيم ومؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي، إضافة إلى كونه أحد أبرز المفكرين الوطنيين الذين نشطوا في بيروت، والقاهرة والمغرب الأمريكي في أواخر القرن الماضي ومطلع القرن الجاري، وقد دفع ثمن هذا النشاط نفياً وتشرداً من قبل الأتراك والفرنسيين.

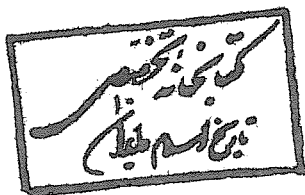
يضم هذا الكتاب مختارات من مقالاته السياسية التي يعالج فيها قضايا التقدم الاجتماعي، والحرية، والثورة، والتعصب الديني، والاشتراكية.. الخ. وتمثل هذه النماذج المختارة من كتاباته على امتداد أكثر من نصف قرن الاتجاهات الرئيسية في تفكيره السياسي.

إن سمة رئيسية تتضح من قراءتنا ومتابعتنا لكتابات الدكتور سعادة وحياته، وهي انصرافه الكلي، بالإضافة إلى مهنته كطبيب، إلى الشؤون الوطنية. وبهذه السمة يتميز عن معظم الأدباء والمفكرين السوريين في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن الجاري. فبعض هؤلاء كان مهمهم لغوياً أدبياً أمثال أحمد فارس الشدياق وأديب إسحق وناصيف وإبراهيم اليازجي وغيرهم، ومنهم من اهتم بالتاريخ والمعرفة المعاصرة أمثال بطرس البستاني وجرجي زيدان وعيسى اسكندر المعلوف، ومنهم من ركز اهتمامه على المسائل الفلسفية والاجتماعية والعلمية أمثال يعقوب صروف وشبلي الشميل وفرح انطون.

وقد أظهر الدكتور سعادة اهتماماً بارزاً في معظم هذه المسائل، إلا أنه ركز بشكل أساسي على القضية الوطنية، فأسس الحزب الديمقراطي الوطني في بوانس أيرس، وترأس المؤتمر السوري الأول في أميركا الجنوبية ناشطاً في سبيل استقلال سورية ومنحرفاً في العمل السياسي في المهجر ومسخر كتاباته وأفكاره لخدمة القضية الوطنية.

تراجم
تكراري
٤
٣
٩

ISBN 1 - 869844 - 38 - 6



سلسلة الأعمال المجهولة

فَخْلِيلٌ عَاوَةَ

بدر الحجاج



RIAD EL-RAYES
BOOKS

رياض الريس للكتب والنشر

4, Sloane Street, London SW1X9LA

THE UNKNOWN WORKS OF: KHALIL SAADEH

by

BADR EL HAGE

First Published in Great Britain in 1987
Copyright © Riad El-Rayyes Books Ltd
4 Sloane Street, London SW1X 9LA

British Library Cataloguing in Publication Data
Saadeh, Khalil

The unknown works of Khalil Saadeh.

1. Nationalism—Arab countries

I. Title II. El-Hage, Badr

320.5'4'09174927 DS63.6

ISBN 1 - 869844 - 38 - 6

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

Photosetting by: Riad El-Rayyes Books Ltd., London
Printed & Bound in Great Britain By: Biddles Ltd., Guildford & King's Lynn

محتویات (الکتاب)

۷	مقدمة
۱۷	خليل سعادة
۲۵	تأخر البلاد والتعصب الديني
۴۳	طبائع الاستبداد
۶۷	ارتقاء الشرق
۸۳	الاشتراكية
۱۰۵	الاستقلال

مقدمة

في ربيع سنة ١٩٧٢ نشرت أول بحث عن خليل سعادة في بيروت بعد اطلاعي على مؤلفاته القيمة التي نشرها في مجلة « المجلة » التي أصدرها في بوانس ايرس (الارجنتين) أولاً ثم أعاد إصدارها في سان باولو (البرازيل) ، وفي جريدة « الجريدة » التي أصدرها في مطلع العشرينات في سان باولو أيضاً . وعندما بدأت الأعداد لهذا الكتاب ، واجهت صعوبة في اختيار الأبحاث التي ستُنشر فيه ، وذلك بسبب وفرتها من جهة ، وتعدد مواضيعها من جهة أخرى . وخلال عملية الاختيار بدأت بالمقال الأول الذي نشره في مجلة « الجنان » بعنوان « تأخر بلادنا وتقدمها » ثم انتقلت إلى مرحلة اغترابه في أميركا الجنوبية فاخترت أبحاثه في الصحافة ، والاستبداد ، والتعصب الديني ، وارتقاء الشرق ، والانتداب ، والاشتراكية ، وختمت هذه المختارات بمقاله الأخير عن شقاء لبنان . واعتقد أن ما اخترته من أبحاث يلخص الاتجاهات الأساسية في تفكيره السياسي والاجتماعي .

إن سمة رئيسية تتضح في قراءتنا ومتابعتنا لكتابات الدكتور سعادة وحياته ، وهي انصرافه الكلي ، بالإضافة إلى مهنته كطبيب ، إلى الشؤون الوطنية ، وبهذه السمة يتميز عن معظم الأدباء والمفكرين السوريين في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن الجاري . فبعض هؤلاء كان همهم لغويا أدبيا أمثال أحمد فارس الشدياق ، وأديب اسحق ، وناصيف إبراهيم اليازجي وغيرهم ، ومنهم من إهتم بالتاريخ والمعرفة المعاصرة أمثال بطرس البستاني وجرجي زيدان وعيسى أسكندر المعلوف ، ومنهم من ركز اهتمامه على المسائل الفلسفية والاجتماعية والعلمية أمثال يعقوب صروف ، وشبلي الشميل وفرح انطوان .

وقد أظهر الدكتور سعادة اهتماماً بارزاً في معظم هذه المسائل ، إلا أنه ركز بشكل أساسي على القضية الوطنية ، فأسس الحزب الديمقراطي الوطني في بوانس ايرس ، وترأس المؤتمر السوري الأول في أميركا الجنوبية ناشطاً في سبيل استقلال سورية ومنخرطاً في العمل السياسي في المهجر ومسخرّاً كتاباته وأفكاره لخدمة القضية الوطنية .

نشر الدكتور سعادته افكاره في مرحلة شهدت احداثا سياسية هامة في سورية ، فقد كان السلطان عبد الحميد قد الغى العمل بالدستور العثماني ومارس القمع والاستبداد مما اضطر المفكرين السوريين والعثمانيين الى الهجرة ، وفي الوقت نفسه كانت السلطنة العثمانية تعيش مرحلة الاختراق التدريجي من قبل الغرب الاوروبي ، وقد توجت تلك المرحلة بانهيار السلطنة العثمانية في الحرب العالمية الاولى ودخول سورية مرحلة التقسيم والانتداب . في ظل هذه الاحداث الجسام كان المجتمع السوري يعيش في وضع اقطاعي بدائي تتجلى فيه عقلية القرون الوسطى والضغط الفكري والسياسي والديني . وشهد خليل سعادته ، وهو ابن جبل لبنان ، آثار الحرب الاهلية سنة ١٨٦٠ والتمزق الطائفي ، وقد لقننه هذه الحرب ، كما لقنت غيره ، درساً في ان الولاء الطائفي خطر على الحياة الاجتماعية ، وان الولاء الوطني هو الولاء الامثل . وعندما بدأت ظواهر التفكك والانحلال في السلطنة العثمانية في اواخر القرن الماضي ، ظهرت الاختلاجات التحريرية نتيجة الاتصال المتزايد بالغرب ، وبدأ المفكرون والاصلاحيون يعملون على تحريك الهمم لمعالجة المعضلة الاساسية المتمثلة بالاستبداد العثماني . وقد نشر هؤلاء المفكرون المصلحون افكارهم الثورية خارج الوطن سواء في القاهرة ، وباريس ، ولندن ، او المغتربات الاميركية . وهكذا ظهر كتاب « طبائع الاستبداد » لعبد الرحمن الكواكبي في اواخر القرن الماضي في القاهرة ، وكتاب « غابة الحق » لفرنسيس المراس الحلي ، وهو كتاب رمزي يتحدث في حوار مطول عن كيفية اقامة « مملكة المدنية والحرية » ، وكذلك مقالات الدكتور سعادته في كل من بيروت ، والقاهرة ، والمغرب الأميركي الجنوبي والتي يعالج فيها قضايا الاستبداد ، والتعصب الديني ، والاستقلال والثورة ، والاشتراكية .. الخ .

طبائع الاستبداد

استعمل الدكتور سعادته عنوان « طبائع الاستبداد » الذي سبق للكواكبي ان استعمله . ونشر بحثاً متسلسلاً بنفس العنوان في « المجلة » . ومنذ المقال الاول الذي نشره في « الجنان » بعنوان « تأخر بلادنا وتقدمها » يحدد الدكتور سعادته احد أسباب تأخر البلاد بالقول : « ان العدل اساس ترقى العمران ، وما دام الظلم موجوداً فسوف ينزل البلاد الى دركات الهوان »^(١) .

وفي بحثه « الاستبداد والشرق » يعتبر الدكتور سعادته ان الاستبداد قد اذل نفوس الشرقيين و « أن ديانات الشرق كانت من أعظم البواعث على استبداد ملوكه وحكامه به ... فقد رفع كهنته الاقدمون الشعوذة الى مرتبة فن راق ، وتوجهت افكار اممه الى نواهي الدين واوامره »^(٢) .

وفي سلسلة « طبائع الاستبداد » يشرح كيف ان طوق الاستبداد قد كبل

اهل الشرق بقوالب حديدية منذ عصور الجاهلية حتي عهدنا الحاضر ، وكيف ان الاستبداد قد ولأ الذل ، والذل اصبحت متوارثاً متأصلاً فانقادت الامم كالقطعان وراء الحاكم يسيرها كما يسير الراعي خرافه .

وامام قمع عبد الحميد واستبداده يكون الدكتور سعادة اكثر تحديدا في كلامه عن الاستبداد ، فهو يعتبر انه « باسم الاستبداد قتلت آمالنا ، ومررت حياتنا ، ونغصت عيشنا ، وأحاطتنا بظلمات بعضها فوق بعض ، وروّضتنا على العبودية ، ونشأتنا على الذل »^(٢) . ويتهم السلطان عبد الحميد بالقضاء على نور الحرية والمصلحين امثال مدحت باشا . فيقول مؤبناً الدولة العثمانية : « يوم ارتقى نيرونك عرش المملكة ، وقبض على صولجان الدولة ، اطفئت نور الحرية ، واخذت بخناق الرعية ، وبطشت بكل كبير سولت له نفسه اصلاحاً »^(٣) .

وفي تحليله لمسألة العودة الى العمل بالدستور بعد ثورة الجيش العثماني سنة ١٩٠٨ يتساءل الدكتور سعادة « ماذا افادنا الدستور يوم تصدق به عبد الحميد علينا ، تصدق السيد على عبده الارقاء ، ثم اقفل مجلس امتنا ، وطرد نوابنا ، شارعا سيفه فوق رقابهم ، وناشراً لواء استبداده فوق رؤوسهم ؟ ماذا افادنا الدستور وهو ليس من اعمال الامة ، بل صدقة احسن بها الينا الجيش ، وله ان يمنعها عنا او يستردها متى شاء »^(٤) .

امام مأساة الاستبداد يعتبر الدكتور سعادة ان لا مجال لليأس امام الشعوب ، لأن « الامة التي تحني رأسها لنير الاستبداد تفقد كل شيء »^(٥) . وهو لذلك يدعو الى الوعي واليقظة كي تكون « حيوية الامة » حسب تعبيره « قوة ممانعة » للأمر المفروض لأن الاستبداد يخشى روح العصبية (اي القومية) لأنه رباط الامة الجامع ، لذلك يلجأ المستبدون الى مبادئ الفرقة والتشاحن ، على حد تعبيره ايضاً ، بهدف ازالة روح العصبية كي تتحول الامة « الى قطع من الافراد »^(٦) .

وفي اسبابه في شرح ظاهرة الاستبداد والجمود في الشرق يستعمل الدكتور سعادة اسلوب المقارنة والتشبيه العلمي وهو الاسلوب الذي يميز اكثر ابحاثه . ويؤكد على واقع الدولة العثمانية باعتبارها الدولة الوحيدة في تاريخ العالم التي لم تترك وراءها تمدناً . « ولدت من السيف ، وترعرعت بالسيف ، وعشت بالسيف ، ولقيت حتفك بالسيف »^(٧) ، كما يشدد على « ان الاستبداد لا يموت موتاً بل يقتل قتلاً »^(٨) لذلك يدعو شعوب الشرق الى ثورة عارمة لارساء مبدأ ان الشعب هو مصدر السلطات والسيادة وليس الحكام .

التعصب الديني

وبالنسبة لقضية التعصب الديني فقد انسجم الدكتور سعادة مع ما طرحه

في مقاله الاول في « الجنان » حول هذه القضية حيث اعتبر « ان انشقاقاتنا الداخلية من اعظم اسباب تأخرنا ، وقد اوصلتنا الى آخر دركات »^(١١) . واطّهر الانشقاقات الداخلية برأي الدكتور سعادته هي تلك التي حولت شعبنا الى عصب دينية متنازعة .

وعندما هاجر الدكتور سعادته الى الارجنطين شهد هناك ايضاً الصراعات المذهبية بين أبناء الجالية السورية حيث وقعت معارك في شوارع المدن الارجنطينية سقطت بنتيجتها القتلى والجرحى^(١٢) فكتب بحثاً عن « التعصب الديني في الشرق والشرقين داؤنا العضال » ، وفيه يعتبر ان التعصب الديني هو مرض الشرق الرئيسي ، فقد « اكل التعصب الديني قلب الشرق ، وهراً بنيته ، وافسد انسجته ، وسمم دمه ، ولف حول دماغ الشرق طبقة جيولوجية صرفت الطبيعة دهوراً في اعدادها ، فأصبحت كالمرض المتوارث بتوارثه الخلف عن السلف »^(١٣) .

لقد كان الدكتور سعادته صاحب نظرة علمانية للدين ، وكان همه فصل الانسان عن قضايا الطقوس والتقاليد والماورائيات ، الى قضايا العالم الحقيقي . وهو من هذا المنطلق ينتقد الائمة المسلمين الذين « يعودون الى سوريا بعد ان صرفوا حياتهم في الازهر - ذلك المعهد العلمي العقيم ، بل اعظم معامل التعقيم في العالم - كانوا يصرفون حياتهم في خنادق الازهر لمشاهدة المعارك الدموية بين زيد وعمر ، والمنازعات الابدية بين الصوفيين والكوفيين . كانوا يصرفون فيه العمر ليكتبوا صحيحاً ويخرجون شيوخاً وليس في ادمغتهم من المواد ما يكتبون فيه لا صحيحاً ولا خطأ »^(١٤) .

ويعتبر الدكتور سعادته ان المسيحية ايضاً قد فشلت « لأنها تحولت الى طقوس ، وبدلاً من ان يكون رجال الدين خدامنا اصبحوا الآن سادتنا ، وبدلاً من ان يسيروا على طريق البساطة والتضحية والفضيلة كما فعل الناصري ، ارتدوا الطالبس ووضعوا التيجان وقبضوا على الصوالج »^(١٥) .

وفي شرح نظريته للدين أسهب الدكتور سعادته في تحليل اثر الدين في نفسية الشرقيين ابتداء من الوثنية عند الفينيقيين والقرطاجيين والمصريين والهنود الى المسيحية والمحمدية . واعتبر « ان الدين في الشرقي قطعة من حياته ، فهو يحسب الحياة وسيلة لتشريف الدين ، لا الدين وسيلة لتشريف الحياة والسمو بها من مرتبتها الحيوانية الى مرتبة روحانية تظهر الاخلاق ، وتهدم الفواصل غير الطبيعية القائمة بينه وبين اخيه في الوطنية والبشرية »^(١٦) .

ويخلص الدكتور سعادته الى ان آفة التعصب الديني يجب ان تقتل باقامة مدارس للعلم تلقن اولادنا حب الوطن لأنه « اذا احببنا شفاء التعصب الديني ترتب علينا ترقية اخلاقنا والنهوض بها من الحضيض الذي نحن فيه الى مستوى اخلاق الامم الراقية »^(١٧) .

الثورة والشرق

يعرض الدكتور سعادة في أبحاثه أيضاً حالة الشرق المؤلمة ، حيث تحول الشرق نتيجة للتعصب الديني ، والجهل ، والاستبداد الى غول شرس يفترس بنيه . ويقول الدكتور سعادة في رثاء صديقه ابراهيم البازجي : « أعود الى الشرق الذي يفترس نوابغه كما تفترس الغيلان اولادها ؟ أعود الى الشرق الذي يدفن رجاله في زوايا الاهمال كما يدفن الجاهل لآلئه في زوايا النسيان »^(٧٧) .

وفي محاضراته عن « ارتقاء الشرق » يتحدث الدكتور سعادة بأسهاب عن نكبة جمود الشرق وتقهقره ، ويتحدث عن العلاقة مع الغرب فيخلص الى نتيجة « ان كل امة او امم او قارة لا تطبق نفسها على محيطها هلاكاً تهلك »^(٧٨) . ومحيط الشرق بالنسبة للدكتور سعادة في هذا القرن هو الغرب المتقدم ، ولذلك « يجب علينا ان نشاطر الغرب تمدنه ، ولكن لا يجدينا نفعا ان نطلي اجسامنا بالتمدن الغربي »^(٧٩) ، فعلى الشرق قبل كل شيء كما يقول الدكتور سعادة تكوين قوة حيوية عمرانية ذاتية لا يمكن ان يستمدّها من العالم الخارجي .

يدعو الدكتور سعادة الشرق الى الثورة بوصفها « السكة السلطانية الى الاستقلال » حسب تعبيره ، وقد ازداد في دعوته هذه الحاحاً بعد ان اختبر تأمر الحلفاء على تقسيم سورية بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ، وفي دعوته الى الثورة يقول انه : « يجب علينا ان نهدم بيتنا البالي الى مستوى الارض ، قبل ان نشرع في البناء ، لأن الهدم في بلاد اكل التعصب الديني قلبها واعى الجهل بصيرتها ، وعشعشت الاوهام والخرافات في رؤوس اهلها ، وداس الفساد اخلاقها ، وشل الاستبداد اعضاءها ، اول خطوات البناء »^(٨٠) .

وكما حمل الدكتور سعادة بعنف على السلطنة العثمانية واستبدادها ، تابع حملته على الحلفاء ، وكان لفرنسا القسط الاكبر من هذه الحملة خاصة بعد ان نشرت اتفاقيات سايكس - بيكو التي قسمت سورية ، وطرح الفرنسيين ومؤيديهم فكرة الحماية على سوريا لأنها غير جديرة بالاستقلال . وفي المقابل اعلن الدكتور سعادة ان شعار حزبه الديمقراطي الوطني هو « الاستقلال مع البدواة خير من العبودية مع الحضارة » ، وحمل على الدعوات التي تقول انه ليس لسورية الاهلية الكافية للاستقلال . ويقول في قصيدته « الا اضرموها ثورة مستطيرة » حول هذه الدعوات :

فاحر به قولاً هراء مرقعاً	« يقول لكم قوما نريد حماية
حديث خرافات يوارى المطامعاً	يقولون تمدين وعطف ونصرة
وأما حنوناً تحضن الطفل مرضعاً	يقول لكم قوما نريد حماية
لها ساعد يفري الحديد المدرعاً ^(٨١)	شبيننا على الاطواق إنا لامة

ويعتبر الدكتور سعادة أن القوة الحربية الجامدة لفرنسا لا تستطيع ان

تغلب على القوة الروحية للشعوب ، ويطعن في مفهوم الحرية الذي ينادي به الفرنسيون فيقول : « والآن وبعد ان هدم احرار الفرنسيين في اواخر القرن الثامن عشر قلعة الباستيل ، وهي حصن الاستبداد والاستعباد في باريس ، يريد حقدتهم في اوائل القرن العشرين ان يعيدوا بناءها في سوريا ، متذرعين بالقول الباطل ان لا اهلية لنا قاط للحرية »^(٢٢) .

ومن الحملة على فرنسا الى الحملة على عصبة الامم ودورها في وضع سورية تحت الانتدابين الفرنسي والبريطاني فيقول « ان عصبة الامم تحولت الى عصابة استعمارية وحولت حق الارشاد والمساعدة الذي انتحلته الى حق سيطرة وسيادة ، واخرجت لنا تحت ضغط فرنسا صك انتداب يحمر له وجه الحق ويندى منه جبين العدل لانه صك استعباد محض »^(٢٣) .

لذلك وقف الدكتور سعادته موقفاً مؤيداً للثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥ ، كما سبق له ان اشاد بمعركة ميسلون ، وبشكل عام فان كتاباته في العشرينات تركز بصورة اساسية على قضية استعمار سورية وطرق التصدي لهذا الاستعمار .

الاشتراكية

رافق دعوة الدكتور سعادته الى العلمانية والاستقلال والثورة دعوته ايضاً الى الاشتراكية . ومما لا شك فيه ان الدكتور سعادته قد تأثر بالفكر الاشتراكية التي سادت اوروبا في نهاية القرن التاسع عشر والتي ظهرت بوضوح في كتابات الشميل وفرح انطون وغيرهم .

فالدكتور سعادته يرى « ان المبدأ الاشتراكي في العالم قديم وهو يرجع الى اوائل العصر التاريخي ، ولا تزال آثاره في الشعوب الهمجية ، وعرب البادية الذين يعيشون بالنهب ويقسمون الاسلاب في ما بينهم »^(٢٤) . ويعتبر ان الدين المسيحي كان شديد الميل الى الاشتراكية ويعطي مثلاً على قوله : « جاء المسيح شاب وسأله يا معلم ماذا اعمل لأرث الحياة الابدية . اجابه ان يحفظ الوصايا . فقال له : حفظتها منذ حدثتي ، فأجابه يسوع : بع كل ما لك ووزعه على الفقراء واتبعني »^(٢٥) .

يشرح الدكتور سعادته في ابحاثه تطور المفهوم الاشتراكي عبر العصور الى ان اتخذ هذا المفهوم اساسه العلمي في اوروبا القرن التاسع عشر . وعالج مسألة الاستغلال في بحثه « فلسفة الجوع » معلناً : « سوف نوقف امام محكمة الامة والوطن مجرمي الشعب وفي عدادهم ذلك الفريق من الاغنياء الذي إمتص دم الامة وتصدر مجالسها ونواديها ، ولا رأسمال لديه سوى ما عنده من رؤوس اموال لم يبذل درهما في بناء مستشفى او تشييد مدرسة ، او اقامة ملجأ أو نصرمة مشروع وطني ، بل حسب ان كل الجيوب الملائة والادمغة الفارغة ، هي كل الشروط الضرورية لزعامة الامة »^(٢٦) .

واعتبر الدكتور سعادته ان « تنين الاشتراكية سيحول القوة الطبيعية القاهرة الى قوة عمرانبة باهرة » لانه « كما انبثقت المسيحية في اوربا من مراسح رومية ووسط مصارعة الاسود والنمورة الجائعة وتهليل قياصرة الرومان وعظمائهم ، كذلك سوف تنبثق الاشتراكية الحققة من مراسح حرب الامم الهائلة ووسط الاسود والنمورة البشرية الجائعة وتهليل قياصرة اوربا وعظمائها . صوت صارخ من وراء الاوقيانسات والبحار وفي فيافي الفلوات والقفار اعدوا طريق الاشتراكية ، واجعلوها سبلها مستقيمة »^(٢٧) .

في هذه المقدمة السريعة تحدثت عن الاتجاهات الرئيسية في تفكير الدكتور سعادته الاجتماعى والسياسى ولم ااترق الى مواقفه ونظريته للأدب العربى واللغة العربية ، او لأحداث سياسية متفرقة لكنها اساسية كالثورة الروسية وانعكاسات الانتداب الفرنسى على سورية ، ونشاط الحركة الصهيونية لاستعمار فلسطين وغيرها ، لكن المهم فى الحديث عن موقع وفكر الدكتور خليل سعادته انه طرح اطرا جديدة للتفكير السياسى السورى فى المغرب الأمريكى الجنوبي بدعوته للتحرر الشامل وتشديده على البنية الاخلاقية لكل نهضة . وهذه الافكار كانت بدون ادنى شك معينا لتفكير نجله انطون سعادته فى مطلع شبابه ، وقد تطورت هذه الافكار على يد سعادته الابن واتخذت بعدا علميا سياسيا وقوميا منظما ، ولا يزال دورها فاعلا حتى الآن .

بدر الحاج

مراجع

- (١) مجلة « الجنان » ، بيروت ، الجزء العاشر سنة ١٨٧٩ . مقال « تأخر بلادنا وتقدمها » الصفحات ٢٢٢ - ٢٣٩ .
- (٢) مجلة « المجلة » السنة الثانية ، الجزء الثاني ، بوانس ايرس في اول تموز سنة ١٩١٦ . مقال « الاستبداد والشرق » .
- (٣) مجلة « المجلة » ، السنة الثالثة ، بوانس ايرس في اول ايلول سنة ١٩١٧ ، ص ١٤١ .
- (٤) مجلة « المجلة » ، السنة الرابعة ، الجزء العاشر ، بوانس ايرس في ١ تشرين الثاني سنة ١٩١٨ . مقال « على ضريح الدولة العثمانية » .
- (٥) مجلة « المجلة » العدد الثالث ، السنة الاولى ، بوانس ايرس في ١٥ تموز سنة ١٩١٥ . خطاب الدكتور سعادة في حفل تكريم الامير امين ارسلان .
- (٦) مجلة « المجلة » الجزء الخامس ، السنة الثانية ، بوانس ايرس في ١٥ آب سنة ١٩١٦ . مقال « طبائع الاستبداد » .
- (٧) حيدر حاج اسماعيل « طبائع الاستبداد واحوال الثورة » عند الكواكبي ، المراه ، خليل سعادة ، بيروت ، سنة ١٩٧٢ . الصفحات ٧٨ - ٨٠ .
- (٨) المرجع الرابع .
- (٩) مجلة « المجلة » الجزء السابع ، السنة الثانية ، بوانس ايرس في ١٥ ايلول سنة ١٩١٦ . مقال « طبائع الاستبداد » .
- (١٠) مجلة « الجنان » ، بيروت ، مصدر سبق ذكره سابقا .
- (١١) مجلة « المجلة » ، العدد الثالث عشر ، السنة الاولى ، بوانس ايرس في ١٥ كانون الاول سنة ١٩١٥ . مقال « التعصب الديني في الشرق والشرقيين داؤنا العضال » .
- (١٢) المرجع السابق .
- (١٣) مجلة « المجلة » ، السنة الرابعة ، الجزء الثالث ، بوانس ايرس في ١٥ تموز سنة ١٩١٨ . مقال « الآباء والبنون وحرية الفتاة » ص ٤٦ .
- (١٤) الدكتور خليل سعادة « الرابطة » سان باولو ، البرازيل ، سنة ١٩١٧ . مقال « عيد الميلاد » ص ٣٤ .
- (١٥) مجلة « المجلة » العدد الثالث عشر ، السنة الاولى ، بوانس ايرس في ١٥ كانون الاول سنة ١٩١٥ . مقال « التعصب الديني » .
- (١٦) المرجع السابق .
- (١٧) مجلة « المجلة » العدد الاول بوانس ايرس في ١٥ حزيران سنة ١٩١٥ . ص ٩ .
- (١٨) مجلة « المجلة » الجزء الثالث عشر ، السنة الثانية ، بوانس ايرس في ١٥ كانون الاول سنة ١٩١٦ . محاضرة « ارتقاء الشرق » .
- (١٩) المصدر السابق .
- (٢٠) راجع المصدر رقم ٥ .
- (٢١) ملحق « النهار » الادبي ، نيسان ١٩٧٢ بدر الحاج « السعاديان الاب والابن » .
- (٢٢) مجلة « المجلة » السنة العاشرة - سان باولو تشرين الثاني سنة ١٩٢٤ ، مقال « المؤتمر السوري الفلسطيني » .
- (٢٣) مجلة « المجلة » الجزء الحادي عشر ، سان باولو كانون اول سنة ١٩٢٤ مقال « فرنسا ودستورنا الوطني » .
- (٢٤) مجلة « المجلة » ، السنة الاولى ، بوانس ايرس في ١٥ آب سنة ١٩١٥ . مقال « معضلة العمران » .
- (٢٥) المصدر السابق .
- (٢٦) مجلة « المجلة » السنة الاولى ، العدد الرابع ، اول آب سنة ١٩١٥ . مقال « اتي رفائنا المشتركين » .
- (٢٧) مجلة « المجلة » ، مصدر رقم ٢٤ .

خليل سعادة (١٨٥٧ - ١٩٣٤)

كان الدكتور خليل سعادة ، مفكراً وسياسياً ومصلحاً اجتماعياً بارزاً ، ساهم مع أقرانه من كبار المفكرين من أمثال ابراهيم اليازجي ، فرح انطون ، شبلي الشميل ، ورشيد رضا وغيرهم في إغناء الحركة الفكرية والسياسية في المنطقة العربية ، وترك مؤلفات وأبحاثاً وروايات عديدة غير معروفة لدى الكثير من قراء العربية اليوم .

والدكتور خليل سعادة هو والد انطون سعادة مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي . ومن خلال متابعة السيرة الذاتية للدكتور سعادة يتضح الاثر الكبير الذي ترك بصماته على نشاط انطون سعادة الفكري والسياسي بحيث انسجم في الكثير من المواقف مع والده .

ولد خليل سعادة في بلد الشوير (لبنان) سنة ١٨٥٧ وتلقى دروسه الابتدائية في مدرسة عبيه^(١) ثم تابع دراساته الجامعية في الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الاميركية حالياً) حيث تخرج من كلية الطب فيها . اظهر خليل سعادة اهتماماً خاصاً بالقضايا الفكرية والاجتماعية رغم توجهه العلمي الاكاديمي ، وكان يكتب خلال سني دراسته الجامعية الابحاث الفكرية السياسية ، وظهر له اول مقال في مجلة « الجنان » التي كان يصدرها المعلم بطرس البستاني في بيروت ، وعنوانه « تأخر بلادنا وتقدمها »^(٢) .

قام خليل سعادة بنشاط سياسي اوسع خلال دراسته الطب في الجامعة الاميركية ، فكان الناطق الرسمي لما كان يعرف في حينه بـ « الحركة الطلابية » التي قامت سنة ١٨٨٢ واصطدمت مع ادارة الجامعة عندما اعلن الطلاب الاضراب العام احتجاجاً على اصرار السلطات العثمانية على عدم الاعتراف بشهادة الطب التي تمنحها الجامعة لخريجها ، وكان عميد كلية الطب الدكتور فاندريك يشجع الطلاب في تحركهم بينما هددتهم الادارة بالطرد في حال استمرارهم بالاضراب .

كانت مشكلة خريجي كلية الطب انهم لا يستطيعون ممارسة المهنة الا بعد ان يقدم الخريج امتحاناً في اسطنبول أمام لجنة من الاطباء الاتراك . وكان

الامتحان يجرى عادة باللغة العربية ، الا ان السلطات التركية اصدرت قرارا خلال العام ١٨٨٢ فرضت بموجبه تقديم الامتحان باللغة الفرنسية او التركية ، في الوقت الذي كان طلاب الطب في الجامعة الاميركية يدرسون باللغة الانكليزية فقط .

ورغم ان الحركة الطلابية التي اشترك فيها خليل سعادته قد اجهضت في بدايتها ، فقد استطاع عندما تخرج طبيباً سنة ١٨٨٣ ان ينجح في امتحان مزاوله المهنة في المعهد الطبي السلطاني في اسطنبول وان يمارس المهنة في بلده الشوير وفي بيروت .

تعاون الدكتور خليل سعادته سنة ١٨٨٣ مع كل من الدكتور جورج بوست ، والشيخ ابراهيم اليازجي ، والدكتور بشارة زلزل ، على اصدار مجلة طبية ، علمية ، صناعية هي مجلة « الطبيب » التي استمر صدورها عدة سنوات الى ان اضطر اركانها الى الاغتراب عن بيروت . فقد سافر اليازجي الى القاهرة بينما دعي الدكتور سعادته الى ترؤس ادارة مستشفى البعثة الطبية البريطانية في كل من طبريا والقدس .

وبعد ان اتخذ القمع العثماني في عهد السلطان عبد الحميد طابعاً شرساً ، والغي العمل بالدستور الذي وضعه مدحت باشا سنة ١٨٧٦ ثم اغتياله سنة ١٨٨٣ ، انتقل الدكتور سعادته الى القاهرة ، وكان قد سبقه اليها عدد من المفكرين والادباء السوريين من امثال يعقوب صروف ، ابراهيم اليازجي ، فرح انطون ، شبلي الشميل ، رشيد رضا وغيرهم .

صدر للدكتور سعادته عن المكتبة الشرقية في القاهرة سنة ١٨٨٦ اول كتاب لغوي بعنوان « الطوالع السعدية في آداب اللغة الانكليزية » . كما نشر روايته الاولى باللغة الانكليزية « الامير السوري او الامير مراد » سنة ١٨٩٣ معتبرها « قصة شرقية تحوي على أهم العادات والتقاليد في لبنان وحواران »^(٣) .

وفي القاهرة أسس الدكتور سعادته مع رفيق العظم ، وعبد الحميد الزهراوي ، ورشيد رضا ، وداود بركات ، وحقي العظم « الجمعية المركزية » التي لعبت دوراً سياسياً سرياً هاماً كما يقول الدكتور سعادته في السنوات الاولى من القرن الحالي ، وكان هدف هذه الجمعية المطالبة بحكم ذاتي للعرب ضمن اطار السلطنة العثمانية^(٤) .

والى جانب عمله في حقل الطب والسياسة ، كتب الدكتور سعادته في صحيفة « الاهرام » ابحاثاً طبية وسياسية في السنوات ١٩٠٢ - ١٩٠٣ ، وكانت تربطه علاقات وثيقة مع زعماء الحركة الوطنية المصرية امثال عرابي باشا ، مصطفى كامل ، وسعد زغلول . ويتحدث الدكتور سعادته عن هذه العلاقة في مقال مسهب بعنوان « ذكرى الاحتلال البريطاني للقطر المصري »^(٥) .

كان الدكتور سعادته يمضي فصل الصيف في بلدته الشوير ، وهناك التقى

بأحد الزعماء الفارين للثورة الروسية ، وانجز في صيف ١٩٠٥ روايته الاولى باللغة العربية « أسرار الثورة الروسية » وهي رواية تاريخية تعالج الظروف التي أدت الى اندلاع ثورة ١٩٠٥ في بتروغراد .

نشر الدكتور سعادة ايضاً روايته الثانية بالعربية « أسرار الباستيل » وفيها يعالج الثورة الفرنسية حيث اعتبر « ان ابتداء تاريخ العالم الحديث كان بانطلاقة هذه الثورة التي كانت أعظم زوابعه ، وأهول عواصفه » .

وفي عام ١٩٠٦ ترجم « انجيل برنابا » من الانكليزية ونشر سنة ١٩٠٧ مع مقدمة له يوضح فيها سبب ترجمته لهذا الانجيل الذي حرّم قراءته البابا جلاسيوس الاول سنة ٤٩٢ . وقد أحدث نشر هذا الانجيل بالعربية عاصفة من الردود والحمات ، وكان الدكتور سعادة مستاء من مقدمة الناشر الشيخ رشيد رضا فاعتبرها مشوهة لمقاصد الترجمة بما ورد فيها من آراء لا تتفق والغاية التي نشر الانجيل لأجلها^(٦) .

وفي عام ١٩٠٦ ايضاً نشر كتابه الطبي « الوقاية من السل الرئوي وطرق علاجه » ، وذلك عن دار المعارف في القاهرة .

وكان الدكتور سعادة يرأسل من القاهرة جريدة « القايمز » البريطانية ويتقاضى مبلغ خمس جنيهات استرلينية لقاء كل مقال^(٧) .

العودة الى الوطن

بعد عودة العمل بالدستور العثماني في تموز سنة ١٩٠٨ ، عاد الدكتور سعادة الى بيروت وبدأ نشاطاً مكثفاً بهدف تشييد المستشفى اللبناني - السوري لمؤاساة الفقراء والمرضى بداء السل ، لكنه اصطدم بالقنصل الفرنسي في بيروت وكان ذلك سبباً في مغادرته لبنان نهائياً . وتفاصيل الحادثة مع القنصل الفرنسي ان هذا الأخير امتنع عن دفع ثمن بطاقات لحفلة مسرحية لرواية « يوليوس قيصر » لشكسبير ، والتي رصد ريعها لاقامة المستشفى اللبناني - السوري ، وفي المقابل احتفظ القنصل بالبطاقات ولم يحضر الحفلة ، ونظراً لعناد القنصل ورفضه دفع ما يتوجب عليه وجّه الدكتور سعادة كتاباً مفتوحاً له على صفحات جريدة « لسان الحال » حمل فيه على سياسة فرنسا الاستعمارية في سورية ، وفضح سياسة استغلالها لشعور المسيحيين في الشرق على اساس انها « حامية الدين » . وكان للكتاب المفتوح اثر كبير في الرأي العام لأن « من يقف في وجه قنصل فرنسا في ذلك الزمن كمن يقف في وجه الآلهة . ولم يطل الوقت حتى بلغت مسامع الدكتور سعادة ان الاكليروس الماروني يتآمر بالاتفاق مع قنصل فرنسا على حياته ، فلم يعبأ بهذه الشائعة الى ان دعاه متصرف جبل لبنان مظفر باشا ، وكان صديقاً له ، واطلعه على خطورة المسألة التي اثارها كتابه المفتوح ، ونصحه بأن يخرج من البلاد

مدة لأن حالة الدولة العثمانية لا تسمح لها بمواجهة مشكلات سياسية جديدة ^(٨) .

الهجرة مجدداً إلى مصر

عاد الدكتور سعادته إلى القاهرة في نهاية كانون الأول سنة ١٩٠٩ ، ونشط مجدداً في الكتابة في صحيفتي « الأهرام » و « التايمز » . وكانت أبرز أعماله انجاز « قاموس سعادته » الانكليزي - العربي الذي يقع في مجلدين « وفيه ابتكر الدكتور سعادته ولأول مرة مئات من الكلمات الفنية في جميع فروع العلوم والفنون ، ولم تكن هذه الكلمات معروفة بالمعاني التي وضعها لها » ^(٩) . وتقديراً لجهوده العلمية والانسانية منحه الخديوي عباس حلمي باشا لقب بك ، لكن الدكتور سعادته لم يستعمله . وقد ساءت فيما بعد علاقاته مع الخديويين بسبب ارتباطاته بقيادة الحركة الوطنية المصرية ، لذلك أبلغ من قبل الخديويين بعدم رغبتهم ببقائه في مصر ، فاضطر إلى الهجرة نحو اميركا الجنوبية في مطلع العام ١٩١٤ حيث امضى هناك العشرين سنة الاخيرة من حياته .

في الأرجنتين

كان المغترب الأرجنتيني المحطة الاولى في هجرته الجديدة ، وفي مدينة بوانس ايرس أصدر الدكتور سعادته مجلة « المجلة » « من اجل الخدمة الوطنية والعلمية » وحملت ابحاث « المجلة » الصيحات الاولى من المهاجر الاميركية الجنوبية في سبيل الحرية والاستقلال . واضافة الى تحرير « المجلة » كتب الدكتور سعادته أبحاثاً تاريخية وسياسية باللغة الانكليزية في جريدة « ستاندر » وذلك في السنوات ١٩١٤ - ١٩١٥ . كما أسس « نقابة الصحافة السورية » في الأرجنتين في نهاية سنة ١٩١٥ بهدف حماية حقوق الصحفيين السوريين في المغرب . وأسس أيضاً « الجامعة السورية » في تشرين الاول سنة ١٩١٦ بهدف « تقارب ابناء الجالية ومعالجة الامور الثقافية والاجتماعية والدفاع عن مصالحهم كمواطنين » ^(١٠) . وكانت قمة اعماله التنظيمية دعوته الى المؤتمر الديمقراطي الوطني السوري الاول في بوانس ايرس الذي عقد في الخامس عشر من شباط ١٩١٩ ، وقد انتخب هذا المؤتمر لجنة تنفيذية تابعة له ، وأرسل البرقيات الى مؤتمر الصلح المنعقد في فرساي ، والى الرئيس الاميركي ولسن ، ولويد جورج ، والى وزراء الخارجية في واشنطن وباريس ولندن ، وروما ، مطالبة باستقلال سورية ومحجة على اعلان فرنسا « حمايتها لسورية » .

أثر انعقاد هذا المؤتمر ، أعلن الدكتور سعادة عن تأسيس الحزب الديمقراطي الوطني ، ونشر برنامجه السياسي في « المجلة » وكان شعار الحزب المذكور « الاستقلال مع البداة خير من العبودية مع الحضارة » . وقد لعب هذا الحزب دورا بارزا في بث الوعي الوطني في الجوالي السورية في المهاجر الاميركية في فترة كثفت فيها فرنسا نشاطاتها في اوساط ابناء الجوالي السورية ، وقد اسمع هذا الحزب صوته لحكومات الحلفاء في مؤتمر الصلح مطالبا بالحقوق الطبيعية لسورية أي : الاستقلال .

المحطة الأخيرة في البرازيل

في مطلع العام ١٩١٩ انتقل الدكتور سعادة الى سان باولو ، البرازيل ، حيث أقام فيها ، واستدعى عائلته من لبنان . وبعد فترة أصدر صحيفته الاسبوعية « الجريدة » واعتبرها « صلة الوصل بين الاوطان والجاليات اللبنانية والسورية والفلسطينية ولسان حال النهضة العصرية »^(١١) وكان شعار « الجريدة » التي صدرت في مرحلة لاحقة بصورة يومية « صحيفة حرة ، سياسة بلا تحزب ، علم بلا تعصب ، انتقاد بلا محاباة »^(١٢) .

في جريدة « الجريدة » واصل خطه الوطني وحملته الشديدة على الحلفاء و « عصاية الامم » ففضح اكاذيبهم ونواياهم الاستعمارية . ويقول الدكتور سعادة انه اراد التركيز على القضية الوطنية وطلب الاستقلال في تلك الفترة التي كان بعض ابناء الجاليات السورية يستحثون بحمد فرنسا ويطلبون منه ان يكف عن حملته على الفرنسيين . وقد تحولت « الجريدة » الى منبر لكافة الافلام الوطنية في المهاجر الاميركية الجنوبية حيث ظهرت فيها القصائد الاولى للشاعرين الياس فرحات ورشيد سليم الخوري « الشاعر القروي » ، كما ظهرت ايضا المقالات الاولى لأنطون سعادة الذي عمل مساعداً لوالده في تحرير تلك الصحيفة .

في العام ١٩٢٣ ، وبعد توقف « الجريدة » عن الصدور أعاد الدكتور سعادة اصدار مجلة « المجلة » من سان باولو حيث استمرت بالصدور لمدة سنتين .

بعد توقف « المجلة » عن الصدور واصل الدكتور سعادة كتاباته في الصحف والمجلات العربية الصادرة في البرازيل ، وخصص العديد من مقالاته للاشادة بمعركة ميسلون وبالثورة السورية الكبرى ، وقد وجه نداء للجالية السورية في البرازيل يدعو فيه الى التبرع بهدف اقامة تمثال للشهيد يوسف العظمة . واقبلت الجالية على التبرع وكلف فنان ايطالي بصنع التمثال وجرى ارساله الى دمشق حيث انتصب سنة ١٩٥١ في ساحة البرلمان السوري وسط العاصمة دمشق .

في مطلع العام ١٩٣٠ كلفته عمدة « الرابطة الوطنية السورية » في سان باولو ان يتولى رئاسة تحرير جريدتها « الرابطة » ، وتولى الدكتور سعادته هذا المنصب حوالي اربع سنوات متتالية . كما انتخب بعد فترة رئيساً شرفياً « للرابطة الوطنية السورية » وبقي في هذا المنصب حتى يوم وفاته في العاشر من نيسان سنة ١٩٣٤ .

ترك الدكتور سعادته ابحاثاً عديدة لم تنشر حتى الآن ، اضافة الى رواية مخطوطة بعنوان « انطونيو وكليوبطرا » . وقد عني في الفترة الاخيرة من حياته بدرس وتلخيص النظرية النسبية لانشتاين . وكان يجيد اضافة الى العربية اللغات الفرنسية والانكليزية والاسبانية والبرتغالية والتركية^(١٣) .

المصادر

- ١

Ali Hamie "Khalil Saadeh, L'homme et L'oeuvre 1857- 1934"

These de doctorat, université Paris 1 - Pantheon - Sorbonne 1986

الصفحة ٢١

- ٢ - مجلة « الجنان » بيروت ، الجزء العاشر سنة ١٨٧٩ ، الصفحات ٢٣٢ - ٢٣٩ .
- ٣ - الدكتور خليل سعادة الامير السوري او الامير مراد منشورات مجلة « فكر » بيروت سنة ١٩٧١ - ص ١٢ .
- ٤ - 'Ali Hamie 'Khalil Saadeh, L'homme et L'oeuvre 1857-1934' الصفحات ١٠١ - ١٠٣ .
- ٥ - مجلة « الرابطة » السنة الرابعة ، الاعداد ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، سان باولو البرازيل سنة ١٩٣٢ .
- ٦ - انطون سعادة « الآثار الكاملة » (١٩٤٤ - ١٩٤٥) الجزء الثاني عشر « ذكرى الدكتور خليل سعادة » . الصفحات ١١ - ١٥ .
- ٧ - مجلة « المجلة » بوانس ايرس ، الارجننتين ، السنة الاولى ، العدد الاول في ١٥ حزيران ١٩١٥ .
- ٨ - انطون سعادة ، الآثار الكاملة (١٩٤٤ - ١٩٤٥) الجزء الثاني عشر « ذكرى الدكتور خليل سعادة » الصفحات ١١ - ١٥ .
- ٩ - مجلة « المجلة » بوانس ايرس ، الارجننتين ، العدد العاشر سنة ١٩١٥ .
- ١٠ - مجلة « المجلة » بوانس ايرس ، الارجننتين ، السنة الثانية ، العدد الحادي عشر في ١٥ تشرين الثاني ١٩١٦ .
- ١١ - جريدة « الجريدة » ، سان باولو ، البرازيل . العدد ٨٤ في ١٥ تموز ١٩٢٢ .
- ١٢ - المرجع السابق .
- ١٣ - نواف حردان مقدمة كتاب « الرابطة » سان باولو ، البرازيل سنة ١٩٧١ ص ٢٠ .

تأخر البلد
والعصبة الزبي

تأخر بلادنا وتقدمها^(١)

لما كان جنانكم^(٢) قد حوى أطرف الأشجار وأطيب الفاكهة فراق للنظر وتناق الذوق لثمره، قدمت هذه الشجرة لكي اذا لاق تغرسوها فيه لعلها تنمو وتثمر ثمرأً يحلو لذوق قاطفه ولكم المنّة والفضل.

لقد رمانا الزمان بسهام النوائب فأوهى قوانا وأخار عزائمنّا، فانطرحنا على الأرض نتقلب بدمائنا خابطين بها. والظاهر ان هذه السهام قد تسممت بسموم الخراب القتالة فجرحتنا جرحاً لا أمل لنا بالشفاء منه ما لم يدرك احوالنا طبيب ماهر يصف الدواء الشافي وينقذنا من آلام وقعنا فيها واوجاع تن من جري شدتها. وقد صبرنا على النوازل التي السّمت بنا صبرا مدهشاً والتقيننا نصال الزمان وصروفه بترس التآني ودرع الثبات، حتى شعرت أيدينا بالكلل وأجسامنا بالتعب انتهكت. واذا دما على هذه الحال التي نحن عليها فلا نلبث طويلاً الا ونبادر الى غمد سيف المحاماة مسلمين ذواتنا الى عدو مضر لا يرحم ولا يشفق بل قلبه أقسى من الجلود. وقد وصلنا الى درجة قصوى من الانحطاط والتأخر حتى خيل لنا انه لا سبيل الى بلوغ درجات المعالي والفوز بمراتب التقدم. والحالة التي قد وصلنا اليها لا تحتاج الى برهان فهي أولية. على اننا نبحت عن الأسباب التي ادت لهذا التأخر الذميم فننبذها عنا والتي تؤول لتقدمنا فنجري بموجبها، فان حالنا هذا مرض عضال لا يمكن اعطاء الدواء دون علم أصول المرض.

ان انشقاقاتنا الداخلية ان لم تكن اعظم الأسباب لتأخرنا فهي بعضها، وتعتبر كعنصر ان دام يؤول الى دمار بلادنا ويوصلها الى آخر

(١) المقال الأول نشر في مجلة « الجنان » ، بيروت ، الجزء العاشر سنة ١٨٧٩ الصفحات ٢٣٢ -

٢٣٩ . ووقع على الشكل التالي « بقلم الخواجا خليل سعادتي » أكثرها بحروفها.

(٢) المقصود مجلة « الجنان ».

دركات الخراب فيجعلها قاعاً صافصفاً وداراً بلقعاً تنعب في خرباتها اليوم وينعق على أغصان أشجارها غراب الدثار. فإنه لم نسمع عن أمة قط أنه في زمن انشقاقاتهما الداخلية قد رقيت في سلم المجد وبلغت درجات الشرف ، بل من كان شأنهم كذا تندك بلادهم الى قعر اوقيانوس الفقر والتأخر، وينحطون انحطاطاً لا يقومون منه ما كرّت الأجيال وتوالت السنون ان داموا على كذا حال. فلماذا نعجب من تأخر بلادنا والاغراض آخذة من قلوبنا كل مأخذ ، فترى زيدا يرشق عمراً بأسهم الملامة والقذف وهذا ينكت على خالد ويرشقه بنبال الحسد. وقد امتدت هذه الآفة فينا وسرت في ابداننا حتى اننا لا نكف عن رشق أبناء مذهبنا بسهام التنديد ونتحذ معهم في ذم أمة أخرى، وهذا لان أعيننا الشريرة لا تطيق ان ترى أحداً في صدور المجالس أو وظائف أخرى من ابناء ملتنا او غيرهم بل تحب ان نخسرها وإياهم من ان تراهم متمتعين دوننا. أو كيف نرجو تقدمها وهي أمة منشقة لا راحة لها اذ تحارب نفسها وغيرها، فهذه حالة الخراب التام وعلامة الدمار العميم .

ومن انشقاقاتنا الداخلية انقسامنا الى عصب دينية وكل فريق يعضد عصبته ويروم تنكيس الأخرى ، فترى هذا يقاوم ذاك وذلك يجادل هذا . وهكذا تشب نار المشاحنات في احشائنا وترانا في جدل دائم . ولا يخفى ان أمراً كهذا يتلقنه الولد من ابيه فيسري هذا الداء الى الجميع ويعم بلاؤه كل قطرنا وتقع ويلاته على جميعنا فتنتزع امنية أصحاب الأعمال وتسلب راحة العباد ، فنكون قد بحثنا عن حقتنا بظلفنا واجتهدنا في تعطيل صوالح بعضنا . أفنرجوا والحالة هذه طلوع بدر الاقبال وبزوغ شمس التقدم وأعمالنا كغيوم كثيفة تحجبها عنا ؟ فما زالت هذه الحالة حالتنا يأفل بدرنا ونمسي في ظلمة دامسة ، ولا ينبغي ان نتعجب اذا تأخرنا في ظروف كهذه ، ولكن بالاحرى يجب ان ننذهل اذا لم نتأخر . فلماذا تعمي الغايات اعيننا عن النظر للحق ، وترمي الاغراض سهامها علينا كأننا أغراضها ؟ ولم يقتصر هذا الداء على مهاجمتنا فقط ولكن عدواه سرت الى بعض الدواوين والمجالس فيقوم فيها أنصار كل لفيئته . فأين العدل ممن اعماه روح الغرض لكي لا ينظر لتوسلات المظلومين وأبلى أذنه بالصمم لكي لا يسمع صراخ الحق ؟ ولم تقتصر انشقاقاتنا على منع عضد الحق فقط بدون تحزب ولكن يحسب المتحزب ذاته عدواً

للفريق الثاني ويعامله كألد اعدائه عوضاً عن معاملته كصديق . فقد حللنا رباط الاتحاد وفككتنا قيود الالفة ووضعنا بدلاً عن الأول الانشقاق وعوضاً عن الثاني العدوان . ولو كنا نرى امرأً فيه صالح ولو كان افرادياً للمتصرف هكذا لما نعرله ، ولكن لا نرى نفعاً سوى ازعاج المنشقين . فابشر ايها الوطن ان دمت على هذه الحال بالخراب العاجل والفقر المدقع فما بعد الانشقاق سوى الخراب وما بعد الخراب سوى الدثار التام ! فنجد وراء العمران ولكنه يسمي وقتئذ اثرأ بعد عين ولربما لا اثر ولا عين ، فنصبح حينئذ كالظامي الذي يغتر برهراث الال فيجد طلباً للماء على انه لما يدنو اليه تخب آماله . فيا ايها السادة السوريون لننتهز هذه الفرصة وننبذ عنا الانشقاقات .

اما السبب الثاني الذي يأول الى تأخر الوطن فهو حب الذات فقط . لا يخلو الانسان مهما كان محباً للوطن وخير العباد من حب الذات الذي يمتلك كل عواطفه ويسود على جميع حواسه ويجعله عبداً مطيعاً يديره كيف شاء . ولا بد للانسان في كل اشغاله وأعماله وحركاته من قصد . واذا نظرنا عموماً للانسان من هذه الحيثية نرى ان اكثر مقاصده هي ان ينفع شخصه الذاتي وان يعد لنفسه جميع اسباب الرفاهية ، فنرى ان ذلك ناتج بالجملة عن مفاعيل حب الذات الذي امتلك كل قواه . ولا يقدر الانسان مهما كانت ظروف احواله ان يقطع النظر عن هذا الأمر الذي ينظر اليه بعين الأهمية والعظمة ويعده من واجباته الأولية ، فلولاها لما كان يقتحم المخاطر ويلاقي المتاعب مستسهلاً الصعب وجاداً في الأعمال بكد جزيل وتعب شاق نابذاً الكسل ممتطياً جواد الهم . ولا يقدر أحد ان ينكر وجوده فيه ، فهو ملكة رسخت في جسم الانسان فتراها فيه من حين وجوده على هذه البسيطة الى ان تفاجئه المنية ، فهي غريزية تنمو بنمو العمر وترداد بتوالي السنين فكما ان جاذبية الأرض تجذب الأجسام التي على سطحها نحو مركزها فكذلك حب الذات يجذب جميع اميال المرء وافكاره نحوه . ومع ذلك لا يمكننا ان نغض النظر عن التفاوت الموجود في الاشخاص ، فلا شك انه يوجد بون عظيم بين البعض من هذا القبيل ، فانه قد اخذ بمجامع قلوب البعض كل مأخذ حتى أعماهم عن النظر للصوالح العمومية فأصبحوا لا يهتمون الا بذواتهم ولا يفكرون الا بما يرقيههم الى اسمى المراتب ويرفعهم الى أعلى درجات المجد والعز قاطعين

النظر عن وطنهم وأهالي بلادهم، فكأنهم قد خلقوا ليهتموا بحالهم دون غيرهم وليرفها أجسادهم ويلبسوها أفخر الملابس ويغذوها بكل انواع الاطعمة الفاخرة، ولكي يزينوا بيوتهم ويفرشوها بأحسن الفرش ويزينوها بما لو صرفوها في امور أخرى مفيدة لأتوا بالنفع لذواتهم وغيرهم. ولست أعني بذلك انه ليس على الانسان ان يعتني بلبسه وبيته وطعامه . لا ، فان التمدن ينتدبه لذلك على انه ليس من الأمور اللابقة ان يصرف مبالغ وافرة زائدة الحد وأكثرها غير لازمة على أمور كهذه لا منفعة له منها سوى التمتع بمجد باطل لا فخر له فيه. فكل عاقل ينظر الى امور كهذه بعين الاحتقار والاستهزاء . وناهيك عن ذلك فان البعض يلبسون نساءهم اظرف الملابس ويزينوهنّ باقراط الذهب واساور الالماس ليزيدوهنّ جمالاً ويكسبوهنّ بهاء عوضاً عن الباسهنّ اثواب المعارف وتزيينهنّ بحلى الاداب، فيأخذ المتوسطون يقتدون بالاغنياء بهذا الامر وتتذمر عليهم نساؤهم ان لا طاقة لازواجهنّ ان يلقوا عليهنّ من حائل الاثواب وحلي المعادن ما يجعلهنّ يضاهين نساء الاكابر ويلحنن عليهم الى ان يصرف ازواجهن اموالهم على أشياء نظير هذه... ولكن بعد قليل تسمي تلك الاثواب على حافة البلى ولا يمكنهم استيعاضها، وبذلك يكونون قد صرفوا اموالهم للخارج على امور لا تنفع بل بالحري تضرهم وتوصلهم الى الخراب التام. وهكذا يقطع اكابرنا واصاغرنا النظر عن صوالح عموم الجنس ويطرحونها في زوايا النسيان جاعلين جل اهتمامهم وكل قصدهم الاهتمام بحالهم. ولا نعدل من هم في عسر بل نعذرهم ونشترك معهم بالحاسيات ، بل نلوم أولئك الذين لهم اليد الطولى بكذا أمور ولا يلتفتون مطلقاً الى ما يقدم الوطن ويزيده قوة وثروة، وبذلك تزداد قوتهم وثروتهم فلا يكونون بفعلهم هذا قد خسروا أقل خسارة بل يكونون قد اكتسبوا ما يزيدهم مالاً. وهب انهم ضحوا بعض صوالحهم الخصوصية بدفع شيء يسير من المال فهل يفقرهم ذلك؟ واذا لم يشأوا ان يفعلوا ذلك افلا يمكنهم فعل بعض امور أو عضدها بما يأول لخيرهم وخير غيرهم؟ واذا سئلنا كيف يمكنهم ان يفعلوا خيراً لهم ولغيرهم، فالجواب على هذا السؤال يختص بالقسم التالي وسيأتي بيانه، على انه يكفي ان نقول ان واجباتنا الوطنية تحملنا على الكد لترقية الوطن الى درجة عالية وان نرعى الصوالح العمومية غير تاركين صوالحنا الذاتية، ولكن لا ينبغي ان

تعمينا عن النظر لصولح غيرنا بحيث تجعلنا نوجه كل اهتماماتنا اليها غاضين النظر عن كل امر آخر. ولكن علينا ان نعلم ان صوالحنا الذاتية وازدياد قوتنا الافرادية لا تقوى دون ان يتقوى الوطن ويزداد معرفة وثروة . فإذا من يجتهد في صالح العموم يجني اخيرا بعض ثمار اتعابه وينال اجراً وشكراً. فالعاقل لا يفضل القليل العاجل على الكثير الآجل. ولكنه يوجد كثيرون من الذين خدموا اوطانهم بأمانة دون ان يترجوا نفعاً من ذلك، فانه كم وكم من الذين لاقوا حتوفهم في خدمة وطنهم بأمانة وشجاعة حباً به ، رجال يليق ان نسطر اسمائهم بأحرف ذهبية وهك برهان على ذلك :

لما حمل زركسيس ملك الفرس في القرن الخامس قبل الميلاد على بلاد اليونان بجيش جرار اخذت الممالك الكثيرة المتحدة وقتئذ اتحاداً جمهورياً في الاستعداد للدفاع عن الوطن وحماية الديار . وكانت اسبارتا في ذلك الزمان رئيسة سائر الممالك اليونانية المذكورة ، فصممت مع سائر الممالك المتحدة أن ترسل جيشاً ليمنع الفرس عن المرور في مضيق هو مفتاح بلادهم من جهة هجوم الاعداء. وكان ذلك المضيق المسمى بمضيق ثمر موبيل واقعاً بين البحر وجبال عالية، وكان عرضه بضعة امتار. فأمرت اسبارتا ذهاب ثلثماية رجل من رجالها تحت قيادة ليونيداس للدفاع عن ذلك المضيق، وسار مع الثلثمائة اربعة آلاف جندي من جنود الممالك اليونانية المتحدة للمضيق المذكور. فلما رأى زركسيس قلة المدافعين ما خطر له ببال ان هذا النفر القليل يقدر على احتمال صدام جيشه الغفير الذي كان على الاقل ثلثمائة الف جندي، فكتب الى ليونيداس يقول له . « انك اذا خضعت أجعلك امبراطوراً » فجابه « أحب اليّ ان اموت في ساحة القتال محامياً عن وطني من أن احصل على هذه الوظيفة » . فأرسل زركسيس ورقة ثانية لم يكتب عليها سوى هاتين الكلمتين : « سلمني سلاحك » . فكتب ليونيداس تحتها : « تعال واستلمها » . فلما وصلت الى زركسيس استشاط غضباً وامر فرقة من جنوده ان تحمل عليهم وتأتيه بالملك واتباعه احياء. على ان ليونيداس واتباعه صدوها بقلوب لا تهاب الموت، فرجعت القهقري خائبة الآمال. فجدد الفرس الحمل ولكنهم انكسروا وتبدد شملهم ودامت هذه الحال يومين حتى كاد زركسيس يقطع الأمل من كسر المدافعين، ولكن في ليل اليوم الاخير اتاه

أحد اليونانيين الخائنين ودَّله على طريق كان يجهلها بحيث يتيسر له الصعود على الجبل والهجوم على مؤخرة اليونانيين. فلما بلغ اليونان ذلك اجتمع الرؤساء وتشاوروا، فقال لهم ليونيداس: «اذهبوا يا أصدقائي بسرعة ولا تعرضوا انفسكم للموت الذي لا بد ان يعرض بعضنا انفسنا له لقيام الصالح العام، وبما ان قوانيننا لا تسمح لنا بالذهاب من المركز الذي عُين لنا ولو هلكنا بالدفاع عنه، وقيامنا هذا بواجباتنا الوطنية مما يشجع اليونان للقيام بالمحاربة ويضعف عزم الاعداء عندما يرون ثباتنا». وهكذا رجع الجيش اليوناني وبقي ليونيداس ومعه ثلثمائة من السبارتيين. ومما يدل بالاكتر على وجود حب الوطن الذي غلب على حب الذات في ظروف كهذه بهذه الحادثة هو انه كان بين هؤلاء الثلثمائة شابان من اقارب ليونيداس، فشفق عليهما وأراد تخليصهما، فأعطى الواحد تحريراً باسم حكومته وأمر الآخر، بالذهاب اليها لتبليغها كلاماً سرياً، على انهما قالاه: «اننا لم نأت لنحمل التحارير ونبلغ كلاماً ولكننا قد اتينا لنحارب». وهكذا التزم ان يسمح لهما بأن يبقيا معه وأن لا يحرمهما شرف الهلاك ومجد الموت في سبيل خدمة وطنهما. وبعد قليل هجم جيش الفرس الجرار على أولئك الأبطال القليلين، وكان أول من تجندل منهم ليونيداس بعد أن قتل كثيرين، وكذلك هلك أصحابه بعده بعد ان قتلوا عدداً غفيراً. وكان لعملهم هذا تأثير عظيم فانه شدد عزم اليونان واشتد فيهم حب الوطن. وشيد بعد ذلك في المكان الذي هلك فيه الثلثمائة المذكورون عمود وكتب عليه هذه العبارة: «يا أيها الذين يمرون من هنا اذهبوا وقولوا لاسبارتا اننا هلكنا هنا في سبيل طاعة القوانين».

فهل رأيتم مفاعيل حب الوطن ونبذ حب الذات وتضحية الصوالح الخصوصية للصالح العام؟ فان أولئك لم يتأخروا لحظة عن بذل ما عزّ وهان في سبيل خدمة الوطن حتى انهم قدموا ارواحهم للموت فداء عن وطنهم المحبوب. أما نحن فنكتفي الآن بان لا يضع أحد عثرة أمام التقدم اذا لم يسع به، وان لا يعمرى بحب الذات عن النظر لخير البلاد.

والسبب الثالث الذي يرقى أسباب العمران هو العدل.

ان العدل هو النور الذي يدك جيوش الظلم التي هي آفة البلدان، ومن أعظم أسباب خرابها وانقلابها ودوامه يأول الى اندثار الحقوق وضياع الدعاوي ما لم تبذل الأموال. والظالم يضر بنفسه وبغيره، والعاذل ينفع

الجميع. ومن تعود الظلم لا يعود يمكنه القبض على عنان امياله الطامحة فيغور به جواده فيملاً كيسه من دينار الجور. واصطلاح البلاد بتكسير آلات الخراب والدمار التي تشتغل ضمن حدودها.

ولنوجه أفكارنا قليلاً الى الأمور التي ينبغي عملها عند وضع حكام عدل لكي لا يحيدوا عن سبيل الأمانة ويشردوا عن صراط العدل. فلربما العلاج الشافي لذلك هو ازدياد معاشات المأمورين بحيث تكون كافية للقيام باحتياجاتهم لئلا يلتزموا بقلتها من استعمال وسائل غير جائزة لتحصيل ما يكفيهم، فيتعودوا ذلك ولا يعودوا يكتفون فيزدادون شراً ويتورطون به فيكون الآخرون شراً من الأولين. وإذا خسرت الخزينة من زيادة المعاش في الوقت الحاضر فيمكنها أن تعوض أضعاف ذلك في المستقبل، لانه لا يخفى أن نجاح الحكومة يتوقف على نجاح الشعب وتقدمهم، ولا نرى خزينة مملكة في تأخر الا ونرى الرعايا واقعين في ذات تلك الورطة. فمتى تحسنت احوال الأهالي تتحسن أحوال الخزينة أيضاً، وما دام الظلم يشتغل في بلاد ينزلها الى دركات الهوان. وظلم الحكام بالأكثر ناتج عن قلة معاشهم فيقبلون الرشوة وهذه تعمي ابصارهم، فيعوججون القضاء. ولكن لو ازداد المعاش فلربما سهل وقتئذ على الحكومة استئصال أصل الاعتساف. وإذا شرد حاكم عن محبة الصواب فتؤدبه بأصرم القصاصات مجازاة له وارهاباً لغيره فتصطلح أحوال الحكم وتستقيم أمور العباد فتتشيد في البلاد قصور الراحة وأبراج الأمن، فحينئذ تقام دعوى الفقير دون مراعاة خاطر الغني فتتفرج كروب المتضايقين وتنفتح امامنا أبواب الآمال.

أما السبب الرابع فهو تقرير الأمنية في البلاد.

سورية من ازهى البلدان فانتابتها أيدي الزمان وقلبت أفخر مدنها الزاهرة وخفضنها من بروج زهوتها، فالتزمت ان ترضى بنصيبيها وأن تخضع لصروف الزمان وتقلباته، فعوضاً عن انه كان يوجد فيها اثنا عشر مليوناً من السكان فلم يتبق فيها الا أقل من سدس هذا العدد فأقفرت اراضيها الخصبة من عدم الزراعة والفلاحة حتى امست أغلالها في الوقت الحاضر لا تكفي سكانها، فيلتزمون ان يجلبوا الحبوب وما شاكل من بلدان غربية أجنبية. فأى قوم يجسرون ان يأخذوا قطعة من الأرض جانبها عدد غفير من البدو ليزرعوها ويفلحوها؟ فهل يأمن هؤلاء على

مزرعاتهم وعيالهم وحياتهم؟ وهل يقدرّون في كذا ظروف ان يجنوا منافع وثمار اتعابهم؟ لعمرك لا! وهكذا تصبح تلك الأراضي الخصبة النضرة قفراً تأويه الوحوش الكواسر، فينطوي العمران ضمن الخراب الرابض هنالك والممتد بسلطته على هاتيك الممالك فيصبح العمران في خراب كدرّ ضمن صدف.

اما السبب الخامس والأخير فهو كسلنا.

ان كلاً من الاسباب المتقدم ذكرها موضوع قائم منه ، ويمكن للمنشئ ان يملأ صفحات كثيرة من الكلام على كل منها، ولكن خوفاً من التطويل لم أذكر منها سوى ما تهمنا بهعرفته. ويوجد أسباب كثيرة خلاف المذكورة تحاشيت ذكرها هرباً من الملل ولأنها قليلة الأهمية. أما السبب الأخير الذي اذكره في موضوعي فهو كسلنا، وأريد ان لا أطيل الكلام عنه بل ان أقصره بقدر الامكان.

اعذروني ايها القارئون اذا رأيتموني اتكلم بحرية وأبث أفكارى لديكم مبينا الحالة التي بتنا فيها، فقد خلق الانسان حراً.

إننا أمة قد جلست على طنافس الكسل وتوسدت عرش التراخي. وان دامت على هذه الحال فستجلس على بساط التعب وتتوسد شوك القتاد، ستحصد كما زرعت يداها، فلو امتطت جواد الاجتهاد وانكبت على تحصيل الفوائد لما عجزت على الوصول الى ما تصبو اليه نفسها، على انها قد تعودت التقاعد فتستصعب المسالك التي فيها ادنى تعب مفضلة الرضوخ تحت الذل والهوان على الكد والاجتهاد. فقد جعلنا تسليتنا اظهار العظمة والفخرة اللتين كانتا لبلادنا في سالف الاعصار وانها أم الصنائع ومنبع العلوم وقد حازت من الجلال اعلاه، وان آباءنا وأجدادنا قد تردوا برداء المعارف وتمنطقوا بنطاق العلم واكتسبوا مجداً مخلداً في بطون التواريخ... ومثل ذلك من الكلام. فنذكر كل هذه الأمور بفخر وكبرياء وكأننا قد اكتسبنا من سلفائنا ما يجعلنا نظيرهم وينيلنا الفخر، ونزدهي عند ذلك مع انه كان الأولى بنا عند تعداد هذه الأمور ان نستتر وجوهنا خجلاً لما نحن عليه من التأخر والانحطاط.

قال الشاعر:

ان الفتى من يقول ها أنذا

ليس الفتى من يقول كان ابى.

فأننا قد نضينا عن وطننا ما كان له من الزينة والجمال ونزعنا عنه الجلال والفخر ووضعنا مكانهما الذل والانحطاط. فيا صاح د عك الزمان الماضي وتكلم عما أنت فيه، فلا فخر لك بتعداد ما كان لسلفائنا القدماء من المجد، فذلك قد بات في خبر كان! فلمِ التواني؟ هل نبقي منطرحين على فراش الكسل ثملين من رحيق الجهل؟ لقد تناهى الليل وطلع النهار فاستفق أيها الغريق بأبحر النوم واصحُ أيها السكران من رحيق الجهل. فكفانا جهلاً وعاراً، أم هل إيماننا على التأخر عودنا الذل؟ فحقاً اننا قد أمسينا هدفاً لنباله، فانهضوا نهوض الجبار واركبوا ثوب الكسل وتردوا بلباس الكد! وها قد حان زمان ذلك فلماذا يستهين الاكابر بالذين يشتغلون بالكد والتعب طلباً للرزق وبالذين يفلحون الأراضي ويزرعونها؟ ولماذا يحسبون ذلك امراً مهيباً ولا يدرون ان ذلك من أفضل الأمور التي تنجح الوطن وتقدمه؟ فلنخفض جناح الكبرياء ونكدُ في سبيل التقدم ممهدين طريقه. هذا ولا ننكر ما للبعض من الاجتهاد الذي يؤول لخير ذواتهم وتقدم وطنهم، وينبغي ان نسدي لمن أخذ أخذهم جزيل الثناء راجين ان جميع أهالي بلادنا يقتفون آثارهم لنجاح بلادنا. وعلى كل حال بالله النجاح، واما الكلام عن أسباب تقدم بلادنا فسيأتي بيانه بالتفصيل في بعض الأجزاء الآتية.

الصحافة والأمة	
-----------------------	--

صحافة كل أمة مقياس ارتقائها وصورة أخلاقها ومظهر شعورها وعنوان مجدها، فهي المرآة التي ترى بها الأمة نفسها وتنعكس عنها صورتها ويتجلى فيها تمدنها كما هو لا كما يرسمه الوهم أو يصوره الخيال.

أجل: ان الصحافة الشعب مصغراً، فهي لسان حاله ومحط رحاله ومعقد آماله ومهبط وحي رجاله.

والصحافة الأمة أصابها الجمود، فوقفت في طريق الحياة خاملة ذاهلة تعيش في عصر النور وهي في ظلمات بعضها فوق بعض وفي عصر الحرية وهي في قيود الاستعباد واغلال الرق وفي عصر العلوم وهي غائصة في بحار الأوهام، يفكك التعصب الديني مفاصلها ويقطع التباعد الجنسي أوصالها وينهك الخنوع قوتها ويقتل الذل حياتها فتطير نفسها شعاعاً ويضمحل بأسها فرقاً.

والصحافة الأمة نشطت من عقالها واستيقظت من خمولها وهبت من ذهولها، فسارت في سبيل الحياة سيراً حثيثاً وجرت في مضمار الأمم شوطاً بعيداً فخفقت فوقها أعلام الارتقاء وأظلتها اجنحة الأخاء وتألقت في سمائها كواكب ادبائها وطلعت في شرقها بدور علمائها.

متى استيقظت الشعوب استيقظت حياتها الكامنة وفعلت قواها المستترة وتجلت روحها الطاهرة وبدأت آدابها الباهرة وانتعشت صحافتها الراقية، وهي الصحافة التي ركنها الكفاءة ونبراسها العلم وشعارها الصدق وقوامها احترام النفس ومادتها: الغذاء العقلي، وهو للدماغ بمثابة الطعام للمعدة... صحافة اذا طالعتها القارىء شعر انه تناول غذاء عقلياً لا طعاماً تافهاً اتخم دماغه كما يتخم الطعام الغليظ المعدة النحيطة. ولا تكون الصحافة راقية الا برجالها الفضلاء وكتابها البلغاء الذين

[افتتاحية العدد الأول من «المجلة» الصحيفة الجامعة التي «انشئت لتكون صلة بين الاوطان والجوالي اللبنانية والسورية، ولسان حال النهضة العصرية». وضع الدكتور سعادة شعاراً لـ «المجلة» « سياسة بلا تحزب، علم بلا تعصب، انتقاد بلا محاباة». بوانس أيرس في ١٥ حزيران سنة ١٩١٥ السنة الأولى.]

يعرفون أدواء الأمم وموضع الضعف من اخلاقها ومحل الوهن من عمرانها وأسباب جمودها وعلل انحطاطها، ويسيرونها وسط الزعازع السياسية والزوابع العمرانية كما يسير الرّبان سفينته وسط بحار عجاجة وأمواج طامية حتى يبلغ بها المينا الأمين.

ولا ينهض الرجال الفضلاء والكتبة البلغاء الا اذا دعمتهم امتهم ووقع نداؤهم على آذان مصغية وقلوب واعية، وهو ما ندر حدوثه في الأمة السورية، فلا يكاد الكاتب من هؤلاء ينشئ صحيفة حتى يتطرق اليها الوهن وتذبل ذبول زهرة جميلة اعوزها الماء وأحرقها الحر. وانت اذا بحثت في العالم العربي كله وجدت صحفه الحية تعد على الأصابع، وهذه لم تحي عن طريق الصحافة البحتة بل عن طريق المضاربات وأشباهاها.

كان من وراء ذلك ان صحفاً كانت أحق بالحياة ماتت وان صحفاً كان يجب ان تموت حييت: ماتت الأولى شهيدة جهادها في رفع الشعب الى مستواها السامي، وعاشت الثانية لأنها تدلت الى مستوى الطبقة السافلة من الشعب. كان ارتقاء الفريق الأول علة لهلاكه، وانحطاط الفريق الثاني سبباً لحياته وهو دليل على ان الغلبة في تنازع البقاء لا تكون دائماً في جانب أصحاب الارتقاء. وهذا القول على ما فيه من الغرابة حقيقة اثبتها العلامة دروين الذائع الصيت صاحب مذهب النشوء.

وانت اذا امعنت النظر في صحافتنا لا تجد في العالم العربي طراً صحيفة قط تضاهي صحف أوروبا وأميركا الكبرى، مع ان بعض محرريها لا يقل علماً وبلاغة عن جلة محرري الصحف الأجنبية، وما ذلك الا لنقص في أساس عمراننا وعيب في أخلاقنا. وتبعة الذنب في ذلك على الصحافة والأمة كليهما. فالصحافة العربية سواء في الوطن أو المهاجر لم تبلغ قط مستوى الصحف الأجنبية الراقية على ما المعت اليه، لا لقصور في الكتاب لأن لبنان وسورية كما تقدّم قد انجبا كتبة نقشوا أسماءهم بأحرف من نور في أشهر صحف العالم، بل لأن الشركات الصحافية لا أثر لها في الشرق والمتمولون من السوريين لا يصدرن صحفاً والأدباء الذين يصدرونها ليسوا بمتمولين. ومتى أصبح الأديب منا مثرياً صرفه المال عن الاشتغال بالصحافة والأدب. وزاد الطين بلة ان كثيرين من الذين اشتغلوا بالصحافة لم يكونوا أبناء بجديتها، وبعض

الجرائد العربية لا يعيش الا بنهش الأعراض والسباب والمهاترات... فكان من وراء ذلك أن الوجيه الذي أحجم عن الاشتراك في صحيفة محترمة ضناً ببذل اشتراكها، اضطره جبنه الأدبي الى أن يدفع أضعاف ذلك قطعاً للسان جريدة ساقطة تطرق لسماعها الرؤوس خجلاً، وفداء لعرضه ان تلمّ به صحيفة ساقطة يندى لها الجبين حياء. فنرى مما تقدم أن أخلاقنا هي الباعث على انماء صحافتنا المنحطة وانحطاط صحافتنا الراقية.

أما تبعة الشعب فلا تقل عن تبعة صحافته لأنه لا يناصر صحفه الراقية ولا يقبل عليها كما تقضي به واجباته الأدبية ومصالحه العمرانية ولا يجعلها اجلاله الصحف الأجنبية ولا يعاملها كما يعامل تلك، فلا يدفع بدل اشتراكها سلفاً ومتى دفعه فعل ذلك متبرماً. ولا يدعم اغنياؤنا ادباءنا، وإذا قام بيننا كاتب يستر قصورنا ويرفع قدرنا جحدنا فضله وانكرنا جميله خلافاً لسنة الأمم المتمدنة في اجلال نوابغها ومناصرة رجالها. وكل امة لا تحترم رجال العلم والفضل من ادبائها وصحافيينها لا تحترم نفسها.

ان هذا التخاذل بين الأمة والصحافة يفضي الى انحطاطهما كليهما، وتضطر الأمة صحافتها الى الظهور امامها وأمام الأجانب بالمظهر الذي لا ترضاه الصحافة لنفسها وأمتها، ولا يجوز ان ترضاه الأمة لنفسها وصحافتها. فقصور الشعب نحو صحافته يؤدي الى قصور الصحافة نحو شعبها. ماذا ننتظر من جريدة يومية يقوم على تحريرها كاتب واحد يسيل دماغه مداداً على صفحات الطروس لقاء دخل أو أجرة لا تكفي ضروريات الحياة؟ وما عسى هذا الكاتب مهما كان بليغاً أن ينزل عليك من الآيات البينيات والمقالات الساحرات ووقته لا يكاد يكفي لتسويد جريدته نسخاً فكيف تحريراً؟ كنت اتقاضى لقاء المقالات التي كنت أبعث بها الى الجرائد الانكليزية خمسة جنيهات عن كل عمود، ولم أعرف قط جريدة عربية تدفع خمسة ريالات عن ذلك ! لهذا تجد المقرض في أكثر ادارات صحفنا أهم موظفي المكتب لأنه كاتب بلا أجرة. وإذا بقي هذا التخاذل بين الشعب وصحافته على ما هو عليه الآن كان ضربة على حياتنا الأدبية وعقبة في سبيل غاياتنا العمرانية. فعلى الأمة معاضدة صحفها التي تستحق الاحترام ليتسنى لها بلوغ ما تصبو اليه من الكمال

والاتقان.

صدرت في الوطن والمهاجر صحف عربية قامت بما يجب عليها لابيناء الوطن وجواليهم، وبذلت جهداً لتذليل كل صعب وتمهيد كل عقبة في خدمة الأمة، فد «المجلة» تصافحها عن بعد أو قرب وترجولها كل فلاح. بيد ان الصحف وإن إتفقت في وجهتها العامة والغرض الجليل الذي ترمي اليه، فلكل صحيفة وظيفة مخصوصة ووجهة معلومة وذرائع مستقلة تتوسل بها الى ادراك الغرض العام. فد «المجلة» تعتقد انها تملىء فراغاً في الأقطار العربية من العالم القديم والجوالي اللبنانية والسورية من العالم الجديد، وترجو من الأمة أن تناصرها لكي يتاح لها القيام بما فرضته على نفسها من خدمة وطنها ومواطنيها. وعسى ان ترى الأمة من «المجلة» صحيفة رائدها العلم وشعارها الحق ومادتها الصدق ووجهتها الاخلاص في خدمة وطنها ومواطنيها.

اننا الآن على وشك ولوج عصر مجيد وعهد جديد يكون فيه للصحافة النافعة المخلصة شأن كبير مهما كانت نتيجة هذه الحرب الضروس، لأن الأمم على اختلاف أجناسها وتباين عناصرها ستهب من ضجعتها وتستيقظ من رقدتها وتقبض على أزمة شؤونها بيدها وتدير دفة سياستها بكفها. وستبدأ كل منها فصلاً جديداً من تاريخ حياتها وتسلق سبلاً قويمية في تقويم عمرانها وتصلح كل فساد وتطرق الى تمدنها. وستكون هذه الحرب الغريبة في بابها، الهائلة في نتائجها، الطاحنة بمدافعها، الهابة على العالم أجمع هبوب الزوبعة، المنقضة على ابناء آدم انقضااض الصاعقة مقدمة عصر زاهر وتمدن باهر في تاريخ الحضارة والعمران. أجل: سينبثق من الظلام نور ومن الموت حياة ومن الشقاء سعادة ومن الاستبداد حرية ومن الجور رحمة ومن الظلم عدل ومن المجاعة رخاء ومن النفاق صدق ومن الباطل حق.

ليست هذه الحرب الطاحنة سوى عملية جراحية هائلة تجريها الطبيعة على الجنس البشري لاستئصال سرطانها الذي كان ينهش قلبه ويهرىء انسجته ويفسد بنيته، عملية جراحية تمزق آلامها الفضاء

وتبلغ عنان السماء، آلام صادرة عن أبطال في ساحات القتال وفرسان في ميادين النزال وأرامل في الشوارع والساحات ويتامى في الصحاري والفلوات ونساء تهتك اعراضهنَّ وعذارى تغتصب عفتهنَّ وصبية تفقأ عيونهم وتبقر بطونهم وجماعات تنهشها المجاعات كأنها ذئاب خاطفة أو وحوش ضارية.

وسط الدم والديناميت والنار والدخان والقنابل والمجاعات تجري الطبيعة عملياتها الجراحية على الجنس البشري الذي أساء التصرف بما وهبته من القوى العاقلة والمدارك السامية، تستأصل الطبيعة هذا السرطان بالسيوف والحراب وتكوي فوهاته المتدفقة دما كما يكوي الجراح جرحاً نازفاً بالحديد المحمى، تكوي هذا الجرح الهائل النازف بالنيران المتأججة والقنابل المنفجرة. كل فيلق من فيالق الظالمين يسقط في ساحات الوغى ليس سوى قطعة من هذا السرطان الخبيث، وكل جيش يضمحل من جيوشه ليس سوى غدة من غدده السامة، وكل بطارية تسحق ليست سوى بؤرة من بؤره الملتهبة، وكل حصن يتهدم ليس سوى كرية من كريات القتالة.

بدأت الطبيعة بعملياتها الجراحية، ومتى بدأت الطبيعة بعمل انجزته باتقان شأنها في كل أعمالها في هذا الكون العجيب. مرَّ عليها الآن عشرة أشهر وهي لا تزال في بدء عملها... ولكن ما الأشهر والسنون في عين الطبيعة؟ ألف سنة في عينيها كأمس الدابر وكهزيع من الليل. لا تنفك حتى تستأصل هذا السرطان الخبيث الذي ملأ العالم فساداً وشقاء، ومتى استأصلته ألقته الى قاع الاوقيانوس حيث يبقى مدفوناً الى الأبد.

متى سقط هذا السرطان سقطت معه عروش وتيجان. سوف تثور الأمم على الجانين من أصحاب الرؤوس المتوجة فتدحرج تيجانهم وتحطم صوالجهم وتدك عروشهم وتقذف بهم يوم هوانهم الى هاوية الذل والشقاء، كما قذفوا بها أيام استبدادهم الى وادي الدموع والدماء. أجل: سوف تتحفز الأمم للوثوب على ظالميهما والمستبدين بها تحفز الأسد للوثوب على فريسته. سوف تستيقظ الأمم الخاملة وتنهض الشعوب العائرة ويجيء اليوم الذي تناقش فيه الحساب رعاتها الذين

انقلبوا عليها ذئاباً والمستبدين من سادتها الذين ساموها ذلاً وعذاباً. الويل للظالمين الذين تناقشهم أمهم الحساب يوم ينتصب الميزان ويعض النادم على البنان ويرى الطغاة كيف تكون عاقبة الطغيان.

في هذا الجهاد الهائل - جهاد تنازع البقاء - تموت أم وتتهدم ممالك ، تقوم على ضرائحها وأنقاضها أم وممالك أخرى ، يكون للصحافة في انشائها أثر كبير وشأن خطير . فما يكون يا ترى مصير لبنان وسورية يوم يبوق ملاك الحياة في البوق وينشر الشرقان الأقصى والأدنى من قبرهما ويمزقان اكفانهما ويبرزان من ضريح الظلام والجهل والتعصب الى فضاء النور والعلم والتسامح؟ ما مصير لبنان وسورية يوم تقوم الأموات من قبورها وتحيا العظام وهي رميم؟ أيبقيان في ظلمة القبر أم يخرجان الى نور الحياة وتمدن العصر؟

اني لعلّ يقين أن الطبيعة التي تبعث الهنود من ضرائحهم بعد ان يدفنوا فيها عدة أشهر وتعيدهم الى الحياة بعد أن تنمو الأعشاب على قبورهم، لقادرة على احياء امة ضربت عليها المسكنة وأصابها من التخاذل والذل ما أصارها في عداد الأموات. بيد ان الطبيعة التي تطهر البرص وتشفي المرضى وتقيم الموتى وتأتي سائر ضروب المعجزات لعاجزة عن شفاء مريض لا يريد نجاة أو اقامة، ميت لا يريد حياة... فهل يريد يا ترى لبنان وسورية ان ينشرا من لحدهما ويقوما من ضريحهما؟ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، تلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

التعصب الديني في الشرق والشرقيين

يكاد القلم، وأيم الحق، يعصى أناملنا. وتكاد العبرات تتفجر من مآقينا حزناً على أمة ضربت الجهالة على سريرتها حجاباً وسدلت الضلالة على بصيرتها نقاباً... أمة تتسكع في ظلمات الدهور الخاليات وحولها نور القرن العشرين يتألق بأنواره الباهرات، وترسف في قيود الخرافات وأمم العالم تنشق نسيمات الحياة... أمة اعتادت الظلام والعبودية والجهل حتى أصبح النور يؤذي عيونها والحرية تضر دماغها والعلم يعمي بصيرتها، وحتى أصبح الضلال في عينها هدى والحمافة في شرعها. لم تبق فضائح اخلاقنا مكتومة فقد ملأت اسماع الجمهورية الفضية^(١) وتعدتها الى سائر جمهوريات اميركا الجنوبية، ولا بد أن يكون قد بلغ الآن صداها جميع أقطار العالم الجديد وبعض اصقاع العالم القديم.

امسكنا القلم عن الخوض فيها ترفعاً عن البحث في موضوع يحط فئنة من جاليتنا الى أسفل الدركات ويصم شعبنا بوصمة العار ويدمغ جباه فريق منا بدامغ الشينار.

نطرق هذا الموضوع الآن اضطراراً لا اختياراً. فقد رغب الينا فريق من كرام الجالية وفضلائها ان نقول كلمتنا في هذا الشأن، ووردتنا كتب من وكلائنا ومشتركينا تقول فيها بلغ السيل الزبى وتطلب منا خوض هذا الموضوع. فنحن نجري يراعنا في هذا الموقف الاضطراري ونحاول شفاء هذا المرض الاجتماعي كما نجري مشرطنا على دمل مصاب بالطاعون الجراحي.

أجل: نفتح الآن هذا الدمل الخبيث ونحاول استئصال هذا السرطان القتال - نُجري مشرط الطبيب الاجتماعي لا يراع الكاتب الصحافي.

[نشر هذا المقال في باب «مباحث عمرانية» في «المجلة» العدد الثالث عشر، السنة الأولى، بوانس ايريس في ١٥ كانون الأول سنة ١٩١٥.]

(١) المقصود الجمهورية الأرجنتينية.

الداء العضال

المعارك الدينية الدموية التي جرت بين فريق من مسلمي الأمة العثمانية^(٢) ومسيحييها على رصيف بوانس ايرس وفي بلفيل وسان فرنندس، والزوابع التي كانت على وشك الهبوب في التوكومان وأنحاء أخرى من الجمهورية الفضية... ليست سوى عرض آخر من اعراض دائنا الاجتماعي القتال ونوبة تشنجية من نوب مرضنا العمراني المميت ألا وهو التعصب الديني الذميمة الذي أكل قلب الشرق وهراً بنيته وأفسد انسجته وسمّ دمه وصرعه كما تصرع المكروبات السامة جباراً عظيماً.

ان بين الأمراض البشرية مرضاً يسمى بالتتنوس أو الكزاز علته تطرق مكروب سام الى الجسم عن طريق الجروح أو خدش صغير قد لا يُرى بالعين المجردة، واعراضه نوب تشنجية تصيب الجسم فينتفض المصاب انتفاضاً شديداً وتتقبض عضلاته تقبضاً عنيفاً يتوتر معها الجسم توتراً الى حد يصبح عنده أشبه بقوس، ويظل العليل كذلك حتى تهجع النوبة ثم تعود مرة أخرى... ولا تزال كذلك بين ثوران وهجوع حتى تنتهك قوى العليل ويموت إعياء.

فالتعصب الديني في الشرق والشرقيين أشبه بمرض التتنوس، والمعارك الدينية التي حدثت في هذه الجمهورية نوبة تشنجية من نوب مرضنا العمراني. وإذا ظل هذا الداء متمكناً منا تصيبنا نوبة التشنجية المرة بعد المرة انتهكت به قوى الأمة وماتت بها إعياء كما يموت المصاب بالتتنوس.

(٢) حمل المهاجرون السوريون معهم الى بلاد الاغتراب خلافاتهم المذهبية وعصبيتهم الدينية، وكان سكان امريكا الجنوبية يطلقون عليهم اسم «تركو» نسبة الى الدولة العثمانية التي كانت تسيطر على سورية. وبالنسبة لعبارة «الأمة العثمانية» فقد اعتبر خليل سعادة كغيره من مفكري تلك المرحلة ان الامبراطورية العثمانية هي وطننا لكن سورية هي بلادنا. لقد اختلطت مفاهيم الأمة بالنسبة للدكتور سعادة وغيره، ولم يظهر اتجاه الانفصال عن السلطنة العثمانية بشكل واضح الا بعد هزيمة تركيا في الحرب العالمية الاولى.

وقعت في الأرجنتين وغيرها من بلاد الاغتراب حوادث طائفية بين ابناء الجالية السورية. وابرز تلك الحوادث ما جرى سنة ١٩١٥ بين المهاجرين في شوارع مدن بوانس ايرس وسان فرنندس وبلفيل حيث سقط عدد من القتلى والجرحى، الأمر الذي دفع بالدكتور سعادة الى كتابة هذا البحث.

التنقوس الديني وباء الشرق

الشرق مصاب بأمراض اجتماعية شتى سوف نلمع اليها متى حان الزمن الموافق لذلك، أما ما يعنينا منها في هذا الموقف فهو التعصب الديني وهو أشد أمراض الشرق بروزاً وأعمها انتشاراً وأشدّها فتكاً في النفوس.

هذا المرض الاجتماعي يمتد من المحيط الهندي جنوباً حتى شواطئ البوسفور شمالاً، ومن شواطئ سورية على البحر المتوسط غرباً حتى مجاهل الصين شرقاً، يقطع إفريقيا من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب.

يمتد هذا الوباء في الشرق امتداد امواج الأوقيانوس الزاخرة قاطعاً جبال سورية وهضابها وسهولها وأوديتها زاحفاً في الصحراء زحف الأفعى حتى بغداد وصحاري بلاد العرب، تتمعج هذه الأفعى في طريقها كل تمعج فتقطع ايران وافغانستان والهند والصين وكل صقع من أصقاع الشرق إلا اليابان .

يقوم النزاع الديني في الشرق بين المسلمين والمسيحيين، وفي البلاد الاسلامية الممتزجة يقوم النزاع بين السنين والشييعين، وفي الأصقاع المسيحية بين البابويين والارثوذكسيين والبروتستانت، وفي الهند الوثنية المحضة يقوم النزاع بين البرهميين والبوذيين، وفي الصين بين الكنفوشيين وأنداهم ، وفي ايران بين الشييعين والبابيين... الى غير ذلك مما لا يقع تحت حصر.

مسألة المسائل

السؤال الذي يتبادر الى الذهن هو: لِمَ يا ترى بقي في الشرق الى الآن راسفاً في قيود التعصب الديني؟ لِمَ مرت عليه قرون طوال لم تزده الا تعصباً دينياً؟ لِمَ تأصل فيه هذا المرض القتال الذي نهش لحمه ونخر عظمه وأعمى بصيرته وأضل خطواته وطوق عنقه بطوق من فولاذ وقيد رجليه بسلاسل من حديد ووضع شكيمة في انفه ولجاماً في فيه وقاده

صاغرا ذليلاً لا يبصر بعينيه إلا التعصب الديني ولا يسمع بأذنيه إلا التعصب الديني ولا يلمس بيديه إلا التعصب الديني؟
لَمْ تَرَى الشاب من ابنائنا يطلب أرقى العلوم في أرقى جامعات الغرب، ويبرز فيها على أقرانه، ويقيس أبعاد النجوم ويزن الشموس ويرسم افلاك السيارات ويعين سرعة البروق وأبعاد الرعود، ويدرك أسرار الكهربائية ويعرف امواج النور ويعين اهتزازات الأثير، ويدرك كيفية منشأ الكون وأصل القوة ومصير المادة حتى يصبح إلهاً صغيراً، فاذا عاد الى الشرق وحككته نفخ التعصب الديني في وجهه وبرز في أفعاله ونضح من دمه كما ينضح الماء من الاناء؟

لَمْ التعصب الديني طاعون الشرق الذي لا يبرأ وناره التي لا تنطفئ ودوده الذي لا يموت؟

لَمْ يتبعنا التعصب الديني قاطعاً معنا اوقيانسات العالم وجباله وقفاره ومدنه وصحاريه، ويجري معنا الى القطب الشمالي والقطب الجنوبي والخط الاستوائي ويحل بيننا في انحاء الجمهورية الفضية وأصقاع البرازيل وفيافي تشيلي وسهول الأورغواي وبلدان الولايات المتحدة كأنه لعنة ابدية لا تحول ولا تزول؟

أصل العلة القتالة

إذا أحببت ايها المطالع الكريم ان تعرف أصل العلة القتالة، فاعلم ان التعصب الديني للشرق كان ولا يزال الكل في الكل، فهو الطعام الذي يتناوله والماء الذي يشربه والهواء الذي يتنشقه، ليس هو ابن يوم ولا ابن سنة ولا ابن قرن ولا ابن عشرة قرون، بل هو ابن الأعصر الجيولوجية التي تغيب في ثنايا الدهور السابقة التاريخ.

التعصب الديني في الشرق عمل هائل من اعمال الطبيعة، فهو أشبه بطبقة من الطبقات الجيولوجية التي صرفت الطبيعة دهوراً في انشائها. يرجع عهد التعصب الديني الى الاعصر المتوغلة في القدم يوم كان الشرقي يقف امام الشمس الطالعة وقوف المنذهل من انبثاق هذا الجرم البديع في أفق المشرق، فيحسبه إلهاً عظيماً ويخرُّ له ساجداً ويعفر وجهه أمام أشعته المنيرة وحرارته المحيية.

حياة الشرق سلسلة متصلة من الأعمال الدينية، عبد ما فوق الشمس وما تحت الشمس، فعبد النجوم الواقعة في أطراف الكون وبسط يديه للأشجار وعبد الطيور في أوكارها والوحوش في أوجارها والأسماك في بحارها.

الدين في الشرقي قطعة من حياته، فهو بحسب الحياة وسيلة لتشريف الدين لا الدين وسيلة لتشريف الحياة والسمو بها من مرتبتها الحيوانية الى مرتبة روحانية تظهر الأخلاق وتهدم الفواصل غير الطبيعية القائمة بينه وبين أخيه في الوطنية والبشرية . أفسدت الأديان الوثنية طبيعة الشرق، فلما جاءت الأديان الراقية الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر أفسدها هو وغيرها وصرفها الى غير ما وضعت له .

عبادة مولوك

كوت الأديان الوثنية الشرقي بميسم من نار وساطته بأسواط من عقارب. حياة الشرق عبارة عن سلسلة من الضحايا الدينية الهائلة التي يتجمد لها الدم في الشرايين وترتعد لها الفرائص وتنتفض لها الأعضاء انتفاضاً تشنجياً.

إننا لموردون هنا مثلاً واحداً يغني عن الوف. كان في عداد آلهة الفلسطينيين صنم يسمى مولوك مصنوع من نحاس أجوف ويداه مبسوطتان وعليهما صاج من نحاس. اتدري ما كانت الضحايا التي كان يضحي بها له عباده؟ كان عابد مولوك يأتي بطفله فلذة كبده ثم يوقد النار في جوف الصنم حتى يضطرم أوارها وتحتدم لهبها، ولا يزال كذلك الى ان يحمر النحاس من شدة الحرارة ويتوهج الصاج الذي على يدي الصنم توهجاً شديداً. ثم يمسك بطفله الذي هو لديه أعز من حياته فيعريه من ثيابه ثم يلقيه على ذلك الصاج المتوهج ضحية لمولوك، وهو واقف يشاهد ابنه يقلب حياً امام عينيه يمد يديه اللطيفتين مستغيثاً بأبيه ، وأبوه واقف كأنه قد من جلود ينظر الى إلهه السفاح ولسان حاله يقول: أراض أنت عني يا الهي؟

أي وحش ضار يرضى هذه الفظائع؟ أي نمر مفترس يلقي بولده الى النار؟

ضحايا القرطاجنيين

حمل الفينيقيون الدين القائل بتضحية البشر من صور الى قرطاجنة حيث هاجرت فئة منهم الى هناك وانشأت لها مملكة باذخة طالوت رومية وجرت لها معها حروب تاريخية شهيرة أشهرها الحرب التي اضرها هنيبال الكبير أشهر قواد التاريخ القديم بعد الاسكندر.

كان القرطاجنيون اذا أصابتهم نكبة حربية في غاراتهم على الاعداء يعتقدون اجتماعاً كبيراً يبحثوا في علة ذلك الفشل. وكثيراً ما كانوا يقرون في مثل هذه الحال على ان فشلهم يعود الى كونهم أهملوا بعض الطقوس الدينية التي كانوا يجرون عليها في بلادهم، وهو تقديم واحد من أبناء نخبة رجالهم ضحية لآلهتهم. ولذلك كانوا يعمدون الى انتقاء إبن أعظم رجل بينهم فيصعدونه على سور المدينة ويذبحونه ذبح الشاة كفارة عن آثامهم وجرائمهم.

عروس النيل

نال المصريون نصيبهم من تضحية البشر وتآليه عناصر الطبيعة. ولما كان النيل حياة مصر حسبوه إلها واتخذوه معبوداً لهم يضحون له بالبشر. فكان اذا بلغ النيل أيام فيضانه احضروا أميرة عذراء من أجمل اميراتهم والبسوها أجمل الأثواب وزينوها بأثمن الحلى، ثم أقاموا حفلة دينية فخمة وقادوا العذراء على انغام الموسيقى وأصوات التهليل الى شاطئ النهر، ثم انزلوها في قارب مزدان بالرياحين والأزهار تخفق فوقه مظلات كبيرة جميلة، ثم ساروا بها في عرض النيل، فاذا ما بلغوا وسطه القوا في جوفه العذراء ضحية له. وكانوا يطلقون على الفتاة المضحى بها إسم عروس النيل ويسمون هذا الطقس الديني زفافاً. وكانوا يعتقدون أنهم اذا لم يلقوا الى النيل عروسه غضب عليهم وتقلص فيضانه.

ولما دمّت التمدن شيئاً من أخلاق قدماء المصريين وصرفهم عن هذه العبادة الوحشية، عوضوا الفتاة بدمية أو صورة منقشة على شكل فتاة كانوا يلقونها الى النيل عوضاً عن الضحية البشرية.

ولا تزال آثار هذا الطقس الديني بادية حتى الآن في الاحتفال الذي

يسمونه وفاء النيل، وهو احتفال فخم يحضره فريق من وزراء الحكومة المصرية وكبار ضباط الجيش يجتمعون كل سنة في موضع خاص لهذا الغرض تنصب فيه السراقات وتكتب الحجة المعروفة بحجة وفاء النيل، اي ان النهر قد كمل فيضانه الى حد يصح عنده جمع الخراج، ويسيرون في النيل أثناء ذلك مركباً مزداناً بالاعلام الجميلة ولكنه خال من الدُمى.

ضحايا الغنجس

يجري بعض الهنود في بلادهم على طريقة مماثلة لما تقدم، فهم ققدماء المصريين يحسبون ان نهر الغنجس إله ومياهه مقدسة. وكان كثيرون منهم يطرحون أولادهم في مياهه ضحايا له. ولا يزال جمهور غفير منهم حتى الساعة يعتقد ان مياهه مقدسة وان من اغتسل بها غُفرت ذنوبه وأصبح من الطاهرين. ولولم تبطل الحكومة الانكليزية عادة التضحية البشرية لكان فريق من الهنود لا يزال حتى الساعة يلقي أطفاله في مياه هذا النهر كفارة عن خطاياهم.

منشأ التعصب الديني في الشرق

حَجَّرت الأديان الوثنية في الشرق عواطف اهلها، وصورت آلهتهم وحوشاً كاسرة لا يرونها إلا سفك الدماء ولا يشبعها الا التهام اللحوم ولا يروقها الا نحر الضحايا ولا يسكن ثأرها إلا تعذيب البشر أنفسهم بالمقارع والسياط وتجريح أبدانهم بالمدى والسيوف وقطع الفيا في والقفار مشياً على الأقدام ليحجوا هياكلهم وأماكنهم المقدسة. وبعض أديان الهنود تفرض على أتباعها بلوغ تلك الأماكن زحفاً على بطونهم، أو ان يقتربوا منها منقلبين بطناً على ظهر، فيصرف الرجل منهم أشهراً بل سنين في هذا الحج الغريب الذي يلقي فيه من شظف العيش وانتهاك القوى ما تعجز الأقلام عن وصفه.

فترى مما تقدم ان الشرقي لم ير لهذا العالم معنى سوى القيام بطقوس دينية، ولم ير للحياة غرضاً سوى استرضاء إلهه السفاح الذي

يحسب انه أوجده ليرهقه كل يوم بالطقوس والتقشفات. النتيجة الطبيعية لكل ما تقدم تولد التعصب الديني الذميم في دماغ الشرقي. لأن الرجل الذي بلغ من حمقه الديني أن يقدم ابنه بيده ضحية لمولوك ويراه بعينه يقلب حيا دون أن تأخذه شفقة ولا رحمة، لا يطبق صبراً على من ينكر ألوهية مولوك أو يرى في تلك التضحية مخالفة للفطرة البشرية والبداهة، بل هو يرتد على من لا يؤمن ايمانه ويصارعه ولا ينفك عنه الا صارعاً أو مصروعاً. ومن صرف حياته في اتمام الطقوس الدينية ولا يرى في الحياة الا الدين ولا ترمي مطامحه الا الى الدين، لا ينظر الى من يخالفه في العقيدة الا شزراً أو محملاً.

الوراثة الطبيعية والتعصب

الأديان في الشرق قديمة جداً يرجع عهدها الى ما وراء الأعصر التاريخية دهوراً طويلاً بل تغيب في ثنايا الدهور الجيولوجية على ما تقدم بيانه. وما هو مسطور منها لا يعد شيئاً بالنسبة الى غير المسطور. رسخ التعصب الديني في ادمغة الشرقيين رسوخاً شديداً حتى أصبح أشبه بطبقة جيولوجية صرفت الطبيعة دهوراً في اعدادها. وكان كل جيل منهم يرث التعصب عن آبائه وأجداده ويضيف اليه ما حصله هو بطريق الكسب والتمرن، حتى أصبح شنشنة يتوارثها الخلف عن السلف كما يتوارث الصفات الطبيعية. لذلك يولد الشرقي بالتعصب الديني ويحيا بالتعصب الديني ويموت بالتعصب الديني.

مذهب صاحب «المجلة»^(٣)

يذهب صاحب «المجلة» الى ان التعصب مرض من أمراض الاخلاق ينتقل بالوراثة كما تنتقل الأمراض الطبيعية، فكما يولد ابن المجنون ميالاً الى الجنون وكما يولد ابن السكير ميالاً الى السكر، كذلك يولد ابن المتعصب ميالاً الى التعصب. وتعصب الشرقي ليس حادثاً عارضاً تمكن ملافاته بوسيلة من

(٣) المقصود الدكتور خليل سعادة نفسه.

الوسائل الاعتيادية، ولا هو ناشئ عن مجرد الجهل كما يذهب كل الذين تقدموني بالكتابة في هذا الموضوع، بل هو مرض نفسي او بسلوكولوجي حقيقي لاشيء من المبالغة او المجاز فيه. مرض نفسي يزيده جهل صاحبه رسوخاً كما يزد الجهل السكير تمادياً في المسكرات. ولكن كما ان العلم لا يدرأ الجنون عمن في عائلته جنون متوارث، كذلك لا يدرأ العلم التعصب الديني عن الشرقي، بل الحقيقة التي هي أغرب من كل ما تقدم ان العلم في الشرقيين قد ينزع منهم الاعتقاد في الدين ويُبقي على التعصب الديني وحده كما معنا الى ذلك في صدر هذه المقالة.

المتعلمون والتعصب

قد يقع هذا القول أول وهلة موقع الدهشة والاستغراب، وذلك لأنه قد رسخ الآن في عقول الجميع ان الجهل أضلّ التعصب، فاذا أمكن ازالة الجهل بالعلم زال التعصب بزوال سببه... وهذا كلام مستقيم معوّج. اما كونه مستقيماً فلأن الجهل كان علة التعصب في الاعصر السابقة التاريخ وفي القرون المظلمة من العصور التاريخية، فلو أمكن ازالته حينئذ لكان يزول التعصب بزوال الجهل. اما كونه معوجاً فلأن ما كان يصح في تلك العصور قبل ان رسخ التعصب الديني فينا بفعل الوراثة لا يصح الآن بعد ان توارثناه قروناً طويلاً عن أسلافنا. وبعبارة اخرى ان التعصب الديني اصبح الآن مرضاً في اخلاقنا لا جهلاً في عقولنا. وكما ان مجرد العلم لا يصير الكذاب صادقاً بل قد يزيده تفنناً في الكذب والنفاق، كذلك مجرد العلم لا يجعل المتعصب متسامحاً بل قد يزيده تفنناً في التعصب والشقاق.

نعرف فريقاً من المتعلمين في المدارس العالية اشد تعصباً من الذين تلقوا العلم في المدارس الابتدائية، وفريقاً من المتعلمين في الغرب اشد تعصباً من الذين بقوا يتلقون العلوم في الشرق، وفريقاً أيضاً من الذين تخرجوا من أرقى جامعات أوروبا نظير اكسفورد وكمبرج اشد تعصباً من سواهم على الاطلاق.

التعصب والأديان الراقية

جاءت الأديان الراقية لتنقذ الشرق والعالم من حال التعاسة والشقاء،

وتسير به في سبيل السعادة والنعيم وتحرره من ربة الأديان الوثنية وتطهر أخلاقه من ادراان الرذائل وترفعه الى مستوى أرقى من المستوى الذي كان هو عليه.

بيد أن الشرق الذي لبث قروناً متطاولة يتمرغ في حمأة الوثنية لم يفقه على وجه الاجمال مغزى دياناته الراقية، فكان على الدوام يتمسك بالعرض ويعرض عن الجوهر. ولا يزال هذا العيب بارزاً في أخلاقه بروزاً شديداً حتى الساعة، فعوضاً عن أن يتخذ الدين ذريعة لترقية أخلاقه ووازعاً له عن المنكرات اتخذه وسيلة للنزاع بينه وبين أخيه في الوطنية والجوار، وحاول أن يسيطر به على حرية الغير وارادتهم وأن يكرههم على أن يعتقدوا اعتقاده.

عوّج الأديان وصرفها عن الغرض الذي وضعت له، فأمات روح الدين الذي يراد به تطهير الأخلاق وتخفيف ويلات الجنس البشري وترقية الشعور اللطيف وانماء الفضائل في القلب وتعميم الاخاء وعمل المعروف وتجنب المنكر والقيام بالواجبات نحو الذات والغير قياماً نافعاً للفريقين، وتحويل العالم من وادي دموع وبكاء وشقاء الى جنة أفراح وسرور وصفاء.

أمات الشرق روح الدين ، ولكنه أحيا التعصب الديني الوثني الذي يفسد الأخلاق ويزيد ويلات الجنس البشري ويجفف العواطف ويلمح الفضائل ويعمم الشقاق وينكر المعروف ويفعل المنكر ويجعل العالم صحراء جافة لا أثر فيها للحياة.

التعصب الديني ربح سموم اذا ثارت اعمت البصيرة وقتلت الفضيلة وسدلت على النفوس ظلمات بعضها فوق بعض وجففت ينابيع الرحمة واقتلعت آثار العدل وملأت الجو غباراً واكفهراراً .

التدين والتعصب الديني

التدين فضيلة، اما التعصب الديني فزيلة . الأول دواء نافع أما الثاني فسم نافع. الأول نسيم لطيف منعش أما الثاني فعاصفة هوجاء قاتلة. التدين كالندى على اكمام الأزهار الجميلة اما التعصب الديني فسيل جارف لا يبيقي ولا يذر. التدين لصاحبه نور لطيف يبدد ظلمات

الحياة ويبعث بأشعة الرجاء الى أعماق القلب فيملأه نوراً وحياة، اما التعصب الديني فنار آكلة اذا اضطرمت أحرقت كل عاطفة شريفة وغادرت القلب قطعة سوداء من فحم.

التدين يرفع عواطف صاحبه الى إلهه ويسكبها أمام عرش «يهوه» اله ابراهيم واسحق ويعقوب، او عند موطيء قدمي «الإله الحي» الحقيقي إله المحبة والصلاح، أو في حضرة الله العزيز الحكيم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله الا هو اليه المصير..

اما التعصب الديني فانه يدفع صاحبه الى سفك دم أخيه في الوطنية ونحر الضحايا بالبشرية كما كان يفعل الفلسطينيون والفينيقيون في غابر الدهور.

التعصب الديني أثر من آثار عبادة مولوك وجوبيتر وايبس وبعل وسائر العبادات الوثنية.

الحد بين التدين والتعصب

الحد بين التدين والتعصب خط هندسي لا طول له ولا عرض، فهو خط أشبه بالخط الفاصل بين لونين مختلفين متماسين. ما هو الخط الفاصل بين التدين والتعصب الديني؟ يقول المشترعون ان حد الحرية الشخصية حرية شخصية أخرى، ويجب ان تقف الحرية الأولى عند الثانية، ونقول نحن ان الحرية الدينية يجب ان تقف عندما تعترض حرية دينية أخرى. فما زال الاعتقاد الديني حر لا يصادم اعتقاداً آخر فهو تدين، اما متى صادمه واعتدى عليه استحال التدين الى تعصب ديني. فالخط الفاصل بين التدين والتعصب الديني الحد الفاصل بين حريتين على وشك الاصطدام.

كل متدين يحاول بالفكر أو القول أو الفعل اكراه آخر على ان يعتقد معتقده هو أو يؤمن ايمانه فهو متعصب، وكل رجل يستاء من أخيه في الوطنية والبشرية لخلاف في الدين فهو متعصب بالفكر، وكل رجل يظهر هذا الاستياء بالكلام أو الكتابة فهو متعصب بالقول، وكل رجل يظهر هذا الاستياء بالاعمال فهو متعصب بالفعل، وكل رجل يعتدي على آخر لهذا الغرض فهو مجرم شرعاً، ومن ذلك القول المأثور لا اكراه في الدين.

علاج التعصب الديني

علمت مما تقدم مذهبنا في التعصب الديني وهو انه مرض لا عرض، لذلك وجبت في علاجه مراعاة الشروط الضرورية التي لا بد منها في علاج الأمراض الاعتيادية.

يجب ان نزيل من عقولنا قبل كل شيء الوهم الذي ارسخه اطباء الاجتماع وهو ان سبب التعصب مجرد الجهل وان تعلم بضع سنين كاف لازالة التعصب.

اذا كان يمكنك شفاء الجنون أو السرطان أو الطاعون بواسطة تعليم المصاب بها في المدارس يمكنك شفاء التعصب الديني بواسطة التعليم. بل قد رأيت مما مر بك بيانه ان بعض المتعلمين أشد تعصباً وأضل سبيلاً من غير المتعلمين، وان العلم عوضاً عن ان يشفي التعصب قد يزيده شدة. وهذا وحده برهان قاطع على صحة مذهبنا ان الجهل وحده ليس سبباً كافياً للتعصب، وان العلم وحده لا يكفل شفاء العلة بل قد يزيدها خطراً.

شروط الشفاء

لشفاء الأمراض ثلاثة شروط: الأول ان يشعر المصاب بأنه مريض، والثاني ان يكون راعياً في الشفاء، والثالث ان يستعمل العلاجات التي يأمر بها الطبيب.

وجوب الشعور بالتعصب

أما الشرط الأول وهو الشعور بالمرض، فضروري لأن من البديهي ان من لا يشعر بعلته لا يطلب شفاءها ولو كانت من أشد الأمراض خطراً فكثيراً ما شاهدنا أعلأء في الدرجة الأولى من السل الرئوي وأحياناً في الدرجة الثانية أو الثالثة وهم يحسبونها زكاماً بسيطاً. ودعينا مرة لمعالجة مجنون، فلما دخلنا المنزل حيّانا المصاب احسن تحية وأجلسنا بجانبه ثم افادنا انه بحمد الله على أحسن حال من صحة العقل والجسد ورجانا

ان نفحص والده لانه مصاب باختلال في عقله !
هذه حال مجموعتنا نحن الشرقيين، فقلّ من شعر منا انه مصاب
بالتعصب، وإذا أقر بشيء من ذلك حسب السل التعصبي الذي بلينا به
زكاًماً بسيطاً يزول ببضع جرعات من المثائل نلتقاها في مدارسنا.

وجوب ارادة الشفاء

أما الشرط الثاني وهو ان يكون المريض راغباً في الشفاء، فقد يظهر
لأول وهلة شرطاً غريباً لأن المعروف ان كل مريض يود الشفاء من علته.
والحقيقة ان بعض الأعلأ لا يريدون الشفاء من بعض الحالات المرضية
وخصوصاً اذا صحبتها لذة. فالمعتاد تناول الافيون في خلوة تتجلى له
فيها احلامه البديعة ويخيل اليه انه ملك عظيم الشأن تأتمر بأمره الممالك
وتعتوله الرقاب لا يود التخلص من هذه الحالة، بل يزداد تمادياً فيها.
وهذا يصدق على فريق كبير منا، لأنه لما اعلن الدستور لم تكن كل
الأمة راغبة في المساواة بين أصحاب الأديان المختلفة من شعوبها. ولما
حدثت في الاستانة ثورة ٣١ ابريل تصدر الحركة علماء الدين وتوجهوا
الى قصر يلدز يطلبون من السلطان عبد الحميد الغاء الدستور واعادة
الأحكام الى ما كانت عليه قبل اعلانه واستعادة السلطان سلطته
الاستبدادية، فاضطر اصحاب «تركيا الفتاة» الى الهرب من الاستانة
ولجأوا الى الكهوف والمغاور وسقط فريق منهم بحد السيف في شوارع
الاستانة، وهرب محمود مختار باشا من منزله وليس عليه سوى قميص
النوم... ولم يمكن استرداد الدستور الا بقوة الجيش.

خطة العلاج

اما الشرط الثالث وهو إتباع ارشادات الطبيب الاجتماعي، فمما لا
مندوحة عنه لنيل الشفاء لان مرضنا عضال ودأؤنا عقام، فاذا أحببنا
الشفاء وجب علينا الجري على النواميس الطبيعية والشرائع العمرانية
دون تأجيل أو ابطاء.

علمت مما تقدم ان التعصب الديني مرض نفسي او بسلوكولوجي نشأ

في الشرقيين منذ الوف من السنين ورسخ في ادمغتهم بفعل الوراثة منتقلا من جيل الى جيل. فهو مرض في اخلاقنا لا مجرد جهل في عقولنا، على ما تقدمت الاشارة اليه.

اذا احببنا شفاء التعصب الديني ترتب علينا ترقية اخلاقنا والنهوض بها من الحضيض الذي نحن فيه الى مستوى اخلاق الأمم الراقية. علينا ان نخلع ذلك الثوب الرث البالي ونرتدي لباساً جديداً يصح لنا به الانخراط في مجتمعات الأمم المتمدنة.

بيد ان تربية الأمم عمل شاق يقتضي دهماً طويلاً، وخصوصاً متى كانت اخلاق الأمة فاسدة متهرئة رثة بالية كأخلاقنا.

العلاج بطريق التحويل

اذا كان الأمر كذلك ولا متسع عندنا من الوقت للانتظار، فما هو العلاج لهذه العلة القتالة التي ابتلينا بها؟ ما هي الطريقة المثلى للتخلص من هذا الالتهاب الاجتماعي؟

اذا أصيب عضو حيوي من اعضاء الجسم بالالتهاب فمن طرق علاجه الفعالة تحويل الالتهاب الباطني الى الظاهر وذلك باحداث التهاب سطحي يقابله. فاذا كان الالتهاب في الرئتين مثلاً يحدث الطبيب التهاباً في ظاهر الصدر وذلك بوضع منقطات من الذراع أو محمرات من الخردل، والغرض من ذلك تحويل الالتهاب من الباطن الى الظاهر.

هذا ما يجب علينا عمله في معالجة التعصب الديني، اي ان نحدث في جسم الأمة تعصباً آخر تنصرف اليه عواطف الشعب عوضاً عن انصرافها الى التعصب الديني الذميم.

الجنسية والوطنية

الالتهاب الجديد الذي يجب ان نحدثه في جسم الامة التعصب الجنسي أو الوطني. يجب ان يقوم التعصب الجنسي أو الوطني مقام التعصب الديني. يجب أن يشعر المسيحي والمسلم والدرزي ان له تعصباً وطنياً حميداً يصرفه عن التعصب الديني الذميم.

البرهان القاطع على صحة هذه النظرية الانقلاب الفجائي الذي حدث في الأمة العثمانية عند اعلان الدستور. كان الدستور العثماني التهاباً سطحياً تحول به التعصب الديني الى تعصب وطني فنسي القوم في مثل غمض الجفن اختلافاتهم الدينية ومشاحناتهم المذهبية وتعانق شيوخ المسلمين وقسوس المسيحيين جهاراً في الشوارع والساحات وحل الوطن والوطنية محل الاسلام والمسيحية.

السؤال الذي يتبادر الى الذهن بعد هذا البيان : ما هو وطننا وكيف يجب ان تكون وطنيتنا؟

ان حرب الأمم تسيطر الان فصولاً غريبة من تاريخ الدهور وفي عداها فصل في وطننا، تسطره بأحرف هيروغليفية من دم وتجفقه بالسنة من نار.

متى انتهت الحرب من كتابة فصولها، تدفع الينا يد القدر حكمها في وطننا. حينئذ نفقه كيف يجب ان تكون وطنيتنا.

العلم والتعصب الديني

اذا كان التعصب الديني مرضاً في اخلاقنا لا مجرد جهل في عقولنا، فهل يصح لنا ان نستنتج من ذلك ان العلم لا يجدي نفعاً في مكافحة التعصب؟

كلا والف كلا، كما يفضل النور الظلمة كذلك يفضل العلم الجهل... اي عاقل يقول بأفضلية الظلمة على النور؟

العلم ضياء اما الجهل فظلام. العلم حياة اما الجهل فموت. العلم دماء اما الجهل فخشونة. العلم تمدن محيي اما الجهل فهمجية مميتة. كما ان الهواء النقي ضروري لسرعة النقه من الأمراض الخطرة، كذلك العلم ضروري لسرعة شفاء الاخلاق من عللها القتالة.

املاؤا البلاد مدارس حتى تملأوا الوطن نوراً. علموا الصغار كل ما يمكن تعليمهم، ولكن قوموا اولاً اخلاقهم وعلموهم ان التعصب الديني نار آكلة تخرب البلاد وتقتل العباد. علموهم ان التعصب الديني آفة الشرق ودأؤه العضال وعلته القتالة، وان كل من يتعصب تعصباً دينياً فهو آبق من وطنه، مارق من وطنيته، مفرق بين ابناء بلاده، عامل على

خراب بيته ، معاون الأعداء على ابناء جنسه ، محكم الأجنبي في رقاب أهله ، خائن لوطنه ، خائن لجنسه ، خائن لنفسه .
علموهم ذلك كل يوم وكرروه على اسماعهم حتى يتلوه غيباً كما يتلون الصلاة الربانية أو الفاتحة ، وحتى يفعل فيهم فعل التنويم المغنطيسي ، وبعد ذلك علموهم ما شئتم مما هو فوق الشمس ومما هو تحت الشمس .
ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

طبائع الاستبدال

الاستبداد والشرق - ١

[اعتقد المصلحون العثمانيون بعد قيامهم بانقلاب سنة ١٨٧٥ بقيادة مدحت باشا ان بإمكانهم المحافظة على الاسباطورية العثمانية بتحويلها الى ملكية دستورية وعلى هذا الاساس وضع مدحت باشا الدستور سنة ١٨٧٦. لكن التجربة اخفقت بعد ان قبض على زمام السلطة بقوة السلطان عبد الحميد، فاصدر حكم الاعدام بحق مدحت باشا الذي لجأ الى القنصلية الفرنسية، طلباً للحماية، هرباً من جنود السلطان، ثم اغتيل سنة ١٨٨٣.

وخلال فترة حوالي ثلاثين سنة من تولي السلطان عبد الحميد السلطة، واصل الكتاب والمفكرون السوريون والعثمانيون نشر الافكار الدستورية في القاهرة، وباريس، والمهاجر الاخرى، وذلك قبل وبعد انقلاب ٢٣ تموز سنة ١٩٠٨ الذي اجبر السلطان عبد الحميد على عودة العمل بالدستور.

كان من أبرز الذين عالجوا موضوع الاستبداد والقمع عبد الرحمن الكواكبي الذي نشر كتابه «طبائع الاستبداد» في القاهرة، وفرنسيس المراس الذي نشر روايته «غابة الحق» في باريس، والدكتور سعادة الذي كتب عن «طبائع الاستبداد في المغرب الارجنطيني».

الاستبداد ناموس طبيعي من نواميس الكائنات الحية، فهو السُّنة الأصلية في الكون. ويرجع عهد هذه السُّنة الى ما وراء الأعصر التاريخية مئات من القرون، يوم كان الانسان الأول يهيم على وجهه في الغابات الكثيفة والأدغال المترامية الأطراف. وكان كل انسان في ذلك الزمن يحسب كل انسان آخر عدواً طبيعياً له، فاذا التقى إثنان منهما في غابة إنقض الواحد على الآخر ولم ينفك عنه إلا صارعاً أو مصروعاً.

الطور الوحشي

لا تزال آثار تلك الطبيعة الوحشية بادية فينا حتى الآن واليها يعود الخوف والذعر الشديد الذي يبدو على وجوه الأطفال متى شاهدوا رجلاً

[نشر هذا المقال تحت باب «مباحث عمرانية» في «المجلة»، الجزء الثاني، السنة الثانية بوانس ايرس في ١ تموز سنة ١٩١٦]

غريباً، وعلته الوراثة الطبيعية لأن كل غريب كان في فجر البشرية عدواً لدوداً لغيره. وما أطوار الطفولية إلا الأطوار التي مرّ عليها الجنس البشري منذ أول عهده حتى تطور الحضارة وال عمران.

بل أن البالغ نفسه متى خرج من بيئة العمران وأقام وحده في موضع منفرد بعيداً عن حماية القانون والهيئة الاجتماعية، فإنه ينظر إلى الغريب القادم إليه نظر المتريب المحاذر ويعدّ عدة الدفاع حتى يكون بمأمن على نفسه من الخطر. ولا يزال فريق من متوحشي أفريقيا وهنود أميركا على هذا الطبع الوحشي حتى الساعة.

فالاستئثار بالسلطة والملك رسخ في الانسان بحكم الوراثة الطبيعية. ومصدر هذا الاستئثار القوة الوحشية التي لا تعرف لها وازعاً أو رادعاً الا قوة وحشية تفوقها.

طور الحضارة

لما جاوز الانسان الطور الوحشي المطلق وانتظم جماعات تقلبها بقعة واحدة وتضمها عصبية واحدة وتجمعها مصلحة واحدة، اضطرتة الطبيعة قسراً الى انتهاج خطة النظام، فأصبح سيد القبيلة حاكمها المطلق وأميرها المطاع والمرجع الأعلى في كل شؤونها وتحت امرته رؤساء عشائر يحكمون في كل خلاف يعرض عليهم.

وبديهي انه متى كان هنالك خلاف في أمر يرفع الى القضاء، اعترفت الهيئة الحاكمة بوجود شيء يسمى حقاً يجب احترامه وتأييده. فالحق اذاً ضرورة عارضة أوجدها العمران خلافاً للاستبداد الذي هو فطرة طبيعية متأصلة في الانسان. وهذا هو سبب بقاء الأفراد والجماعات ميالة الى الاستبداد رغماً من القوانين والدساتير التي سنتها أمم العالم، لأن الحق ابن الأمس أما الاستبداد فابن العصور الجيولوجية التي تغيب في ثنايا الدهور.

الملوك والقوة العضلية

ترتب على هذه الحال الطبيعية نظام الاقطاعيات الذي لا يزال حتى هذا العهد في بلدان كثيرة من انحاء العالم، وفي عداها أرقاها كالبلاد الانكليزية مثلاً. وقد ظل شائعاً في سورية عموماً ولبنان خصوصاً حتى

أواخر القرن المنصرم.
كان سيد القبيلة الأول أقوى رجالها وأشجعهم وأشدهم بطشاً وفتكاً،
وقس عليه الحاكم الأول الذي نصب نفسه ملكاً على رعيته فملك القوم
أقواهم وأشدهم جراً. فالقوة البدنية هي العامل الأول في تسويد الرجال
والقاء مقاليد الأحكام المطلقة الى أيديهم، ثم انتقلت هذه بالتوالي الى
أحفادهم يتوارثها الخلف عن السلف.

الملوك والألوهية

لما عظمت شوكة الملوك ادعوا أنهم آلهة أو أنصاف آلهة واضطروا
رعاياهم الى تقديم السجود والعبادة لهم، وفي عدادهم ملوك فارس . ولما
غزا الاسكندر الشرق واجتاح مملكة الفرس تخلق بأخلاق ملوكها وأكره
قواده وكبار رجاله على أن يحيوه حسب العادة الشرقية أي بالسجود
وتعفير الوجه أمامه، فانصاعوا الى أوامره خلا فيلسوف كان يصحبه،
فلما حيّاه على العادة اليونانية سأله الاسكندر لم لا يسجد له كسواه
فأجابه الفيلسوف: «مولاي انك الآن لسيد امتين الواحدة منهما كانت
مستعبدة فلم تتغير عليها حال أما الأخرى فلقد كانت حرة ولسوف تبقى
كذلك ما ظلت حية». وقد أراد بالأمة الأولى الفرس وبالثانية اليونان،
فحنق الاسكندر عليه حنقاً شديداً وأمر بسجنه في قفص من حديد لبث
مسجوناً فيه حتى وفاته. وكانت هذه الحادثة في جملة أغلاط الاسكندر
المنقوشة على صفحات التاريخ.

ولا تزال آثار هذه العبادة في اليابان والصين حتى يومنا هذا، وقد لبث
ملك الصين يدعى إبن السماء حتى بعد خلعه عن العرش.

الملوك وحقوقهم الالهية

لما أصبحت الوهية الملوك أمراً لا يصدق، ادعى هؤلاء انهم تناولوا
سلطتهم من الله وان الحكم حق الهي لهم يتصل بأحقابهم من بعدهم.
فكان من وراء هذا السنة الدينية القائلة بمسح الملوك بالزيت عند
تتويجهم ومن ذلك العبارة الشهيرة «أنا بنعمة الله ملك كذا». وكانت
الوراثة في الاسبق المالكة مبنية على هذا الحق الالهي المزعوم، ولا يزال
يدعي هذا الحق حتى الآن فريق من مشاهير امبراطرة العالم.

وبيد ان العالم المتمدن لا يعترف للملوك بهذا الحق الالهي. ولقد أصبحت الجملة التقليدية وهي «نعمة الله» جملة اعتيادية اثبتتها الاصطلاح وجرت عليها الالسنه بحكم العادة كغيرها من التقاليد التي لا تزال جارية في الشؤون الملكية لمجرد الاصطلاح.

استبداد الملوك

كان الملوك قبل عهد الحضارة يحسبون الرعية متاعاً لهم يتصرفون به تصرف المالك بملكه، وكانت الرعية تخضع لهم خضوعاً مطلقاً دون قيد أو شرط. ولم يكن عندئذ نظام معروف أو قانون تتمشى عليه الشعوب في شؤونها، بل كانت ارادة الحاكم أو الملك الكل في الكل كما هي الحال في بعض أصناف الحيوانات والطيور التي تجري وراء قائدها دون أن تفكر في سبب ذلك أو غايته، فكانت أشبه بقطعان من الماشية.

ولكن جاء وقت اخذت فيه القطعان البشرية في التفكير. وكان الرجل الأول الذي وقف يفكر ويسائل نفسه «لماذا» فيلسوفاً كبيراً، لأن ذلك الحد كان فاصلاً في التاريخ بين طور الانقياد الأعمى وطور الاستقلال الشخصي.

ومهما يكن من الأمر، فإن استبداد الملوك والحكام ظل قروناً عديدة على أبانها فلبثوا قادة الشعوب المطلقين الى ان إستيقظت الأمم وهبت من رقاد الخمول وشعرت بما لها من الحقوق الطبيعية.

كان الاستبداد عاماً العالم كله على السواء مع فوارق، ولكنه كان في الشرق أشد منه في سائر أنحاء الأرض سواء في الأعصر الجاهلية أو التاريخية، ولا يزال كذلك حتى الساعة خلافاً للغرب.

الديساتير الغربية في التاريخ القديم

نهضت في التاريخ القديم أمم غربية شادت نظامها على مبادئ دستورية حرة تفوق أسمى الديساتير العصرية كاليونان والرومان، فإن الشؤون الدولية في هاتين البلدين كانت حيناً من الدهر تقرر بموجب أصوات رجال الأمة لا بواسطة ممثلها فقط كما هي الحال الآن في أرقى الأمم. ولم تكن الحكومة تجرؤ في الازمات الوطنية على تحمل تبعة أمر دون أن تعرضه أولاً على الشعب ليقول فيه كلمته التي كانت فصل

الخطاب.

والغريب في ذلك انها تستشير في شؤون ليس من صلاحية الشعب الفصل فيها كاختيار قائد مثلاً. فلما أصبح مرة كيان رومية مهدداً في أثناء حروبها لم تجرؤ الحكومة على تحمل تبعة تعيين قائد فدعت الشعب الى الباحة العامة وهي الفورم التي أطلقنا عليها في العربية أسم نادي الأمة، وطلبت إليه أن يعين هو القائد الذي يريده ففعل. ومن غريب أمره أنه انتخب حينئذ شاباً يسمى سيبيو لم يكد يبيلد العشرين من عمره، ولكن غريزة الأمة أصابت المرمى فقال هذا الشاب على حداثة سنه باجراءات حربية خطيرة خلدت اسمه في بطون التاريخ.

ويقال مثل ذلك في الجمهورية اليونانية على عهد ازدهارها، فان الكلمة الفاصلة في الشؤون الوطنية الخطيرة كلها كانت للشعب وكان لكل فرد بالغ من أفرادها حق الاقتراع دون ما قيد أو شرط على الاطلاق. وقس على ذلك بعض الجمهوريات الأخرى.

الالات الميكانيكية العاقلة

اما في الشرق فلم تقم امة قط تباري بنظوماتها الدستورية اليونان أو الرومان. ومع ان الشرقيين بلغوا في التاريخ القديم حداً باهراً من الحضارة وال عمران، لم يبلغوا شأواً يستحق الذكر من الحرية الشخصية والاستقلال الدستوري. فالأهرام التي لا تزال حتى هذا العهد أعجوبة العجائب وغريبة الغرائب ليست سوى أثر من آثار الاستبداد الذي لا يكاد يصدق، فان الملوك كانوا يسخرون رعيتهم للبناء تسخيراً يهبط بالعامل الى دركات الالات الميكانيكية. فمن يصدق أن الأمة التي بلغت من الحضارة شأواً تكاد تتضاءل بجانبه حضارة العصر الحالي ترضى بالتسخير وتقيم على الذل عبدة للملوكها دون ان ترقع صوتاً أو تحرك يداً؟ ولقد ظلت كذلك حتى هذا العهد لان التسخير لم يبطل إلا بعد الاحتلال.

ويقال مثل ذلك في حضارة الصين ومأدي وفارس وبابل وأشور وفينيقية وسائر أصقاع الشرق، فان العمران الذي بلغته هذه الممالك المترامية الأطراف بلغ حداً يحير العقول، وما اكتشفه الاثريون والمنقبون من آثاره الفخمة ليس إلا نزرأ قليلاً مما كان عليه تمدن الشرق القديم. ولكن اممه على فخامة تمدنها وارتقاء عمرانها وازدهار صناعاتها وتألق

علومها ظلت اماء للوكها وكرات تتلقفها صوالج حكامها.

جمود الشرق

الأعجوبة الكبرى في تاريخ الجنس البشري ان الشرق لا يزال في القرن العشرين كما كان في العصور الغابرة. فقد تغيرت جباله وسهوله وأوديته ومجاري أنهاره وغارت فيه جزر وبرزت اخرى وتطورت نباتاته وحيواناته تبعاً لناموس التطور العام في الكون، أما أممه وشعوبه فقد ظلت جامدة جموداً يقضي بالعجب العجاب. فهي بين أمم العالم أشبه بالحيوانات الرخوة بين حيوانات الأرض، فلم تتطور تطوراً سياسياً يستحق الذكر.

كان مصير كل نهضة من نهضاته في هذا السبيل الفشل التام، ولم يترتب على واحد منها قط أثر ثابت في تاريخ الشرق. ومع ان الأمم الشرقية العظمى اجتاحت كل منها في إبان قوتها امصاراً عديدة ودوخت أقطاراً شتى وبسطت ظل مجدها على الغرب نفسه، فلم يكن من وراء اجراءات احداها نتيجة ثابتة في رفع مجموع الأمة الى مستوى راقٍ من الحرية السياسية.

ان جمود الشرق لمن أغرب ظواهر الكائنات العاقلة وأعقد معضلات العمران، ولكن البحث فيه الآن يخرجنا عن موضوعنا، وإنما اتينا على ذكره من حيث علاقته بالركود السياسي.

أديان الشرق والاستبداد

ولا بد لنا في هذا المقام من الامناع الى ان ديانات الشرق كانت من أعظم البواعث على استبداد ملوكه وحكامه به. والحقيقة ان تاريخ الشرق يمكن تحديده بأنه تاريخ دياناته وملوكه.

ومع أن للدين أثراً من هذا القبيل في جميع أنحاء العالم، فان اثره في الشرق أشد منه في سائر أصقاع الكرة الأرضية. فقد رفع كهنته الأقدمون الشعوذة الى مرتبة فن راق، وتوجهت أفكار أممه الى نواهي الدين وأوامره، وأصبحت هذه الحياة عند أهله مجرد معبر للحياة العتيدة. فالأهرام العجيبة التي أتينا على ذكرها لم يكن المراد منها سوى ضرائح ابدية للملوك، أما الشعب الذي شادها فلم يفكر قط في حريته

السياسية لأن الحياة المصرية كانت عبارة عن سلسلة استعدادات للموت، وماذا ترجي من أمة مطمح أمالها القبر؟
لذلك أتت النهضة الكبرى في الشرق عن طريق الدين في الغالب ولولاه لما حرك العرب ساكناً وقاموا بذلك الفتح العجيب الخالد الذي كادوا يسيطرون به على المعمر كله.

أذل الاستبداد نفوس الشرقيين وأرسخ فيهم الاعتقاد بوجوب اطاعة ملوكهم وحكامهم المستبدين طاعة تامة حتى أصبح هذا الاعتقاد غريزة من غرائزهم، فلم يخطر في بال شعوبها ان لها حقوقاً سياسية قوامها سيادة الشعب. وكان اذا نهضت امة من أمم الشرق في طلب الاصلاح لا تطلبه بناء على ما لها من حق سيادة نفسها، بل تطلبه من ملوكها على سبيل الاسترحام أو لرفع الظلم بناء على ما يقول به العدل المدني.

خمول الأمم الشرقية

بقي الاستبداد مسيطرأ على العالم كله إلا فيما ندر حتى الثورة الفرنسية التي كانت الفجر الأول للدستور فأيقظت الشعوب الراقدة ونبعت الأمم الخاملة، الا أمم الشرق التي وقفت بازاء هذه النار المضطربة وقوفها بازاء بركان هائج لا علاقة لثورانه بشؤون العالم الحيوية وحقوق الشعوب المهضومة.

كان على الشرق ان يكون البادىء في المطالبة بحقوق أممه لأنه أعرق مدنية من الغرب، فقد كان عمرانه راقياً يوم كانت أمم الغرب لا تزال على حال الهمجية والبربرية. فتقصيره عن اللحاق بهذه الأمم في سبيل الحقوق السياسية خمول لا يغتفر.

خطأ الشرق

نفضت اوروبا عنها غبار الذل وهبت أممها الى نيل دساتيرها بالقوة فتناولتها على أطراف سيوفها. أما أمم الشرق فظلت جامدة تنتظر من حكوماتها أن تنزع السيادة من أيديها وتقدمها هدية الى الشعب، وهو ما لم تفعله حكومة قط من حكومات أوروبا، فالدساتير تؤخذ عنوة ولا تكون منحة.

اذا لم يفقه الشرق هذا الخطأ الفاضح فسيبقى الى الأبد في قيود

الاستبداد واغلال الرق ولو كسا نفسه دساتير من قمة الرأس حتى
أخمص القدم، لان الدساتير بأممها لا الأمم بدساتيرها.

جرثومة الدستور

إذا لم تكن جرثومة الدستور في الأمة نفسها فعبتاً تحاول الحياة
الدستورية وعبثاً تطبع الدساتير، لأن الأمة التي لا تقدر على تنفيذ
دستورها بيدها لا يحق لها ان تكون أمة حرة.
كل حق لا تؤيده القوة فهو حق خيالي. وكل أمة تطلب الحرية
بالاستعطاء والاسترحام فهي أمة طبعت على الجبن وربيت على الذل
وستقيم على العبودية.

طبائع الاستبداد . ٢

الاستبداد ضرب من ضروب الضغط وتأثيره في النفوس والاخلاق والعاتات أشبه بتأثير الضغط في الجوامد والسائلات والغازات. ولكن لما كانت النفس كائناً حياً كان تأثير الاستبداد فيها أشبه على نوع أخص بتأثير الضغط الطبيعي في اعضاء الأجسام الحية، فهو عبارة عن قالب توضع فيه نفوس الشعوب والأمم كما يضع الصينيون قوالب حديدية في أرجل بناتهم.

عاقبة النمو

متى وضعت عضواً من اعضاء الجسم في قالب من القوالب تشكل ذلك العضو به. ومتى كان هنالك ضغط حصل في الدورة الدموية عاقبة فلا يجري التيار الدموي فيها بالسرعة والسهولة اللتين كان عليهما قبلاً، وذلك يفضي الى عاقبة النمو فضلاً عن أن الضغط المباشر يفعل تواءاً في كريات البنية فيمنعها عن إتخاذ الحجم والشكل الطبيعيين.

وما يقال في الأعضاء الحية التي وقع عليها ضغط طبيعي يقال في الشعوب والأمم التي وقع عليها ضغط الاستبداد، وخصوصاً أمم الشرق التي تشكلت نفوس أهلها بشكل القوالب الحديدية التي طوقها بها حكامها منذ عصور الجاهلية حتى عهدنا الحاضر.

صغر النفس

كان من وراء تأثير ضغط الاستبداد صغر في النفوس أشبه بصغر اقدام الصينيات. فالشرقي أشد أهل العالم صبراً على حمل الضيم. فهو يحمل ضروب المغارم كلها دون ان يتذمر أو يتضجر.

اضاعت المعارف سبله وأنارت العلوم طرقه ومهد التمدن عقباته، ولكنه لا يزال بالرغم من كل ذلك صغيراً في نفسه، صغيراً في أخلاقه، صغيراً في جرأته، لأن الاستبداد الذي ضغطه قروناً متطاولة عاق نمو نفسه فظلت صغيرة مشوهة تبعاً للقوالب التي وضعتها فيها حكامها.

[نشر هذا المقال تحت باب «مباحث عمرانية» في «المجلة» بوانس ايرس، الجزء الثالث، السنة الثانية، في ١٥ تموز سنة ١٩١٦].

فالخطوة الأولى لازالة الاستبداد إنما هي تنبيه عزة النفس في الأمة. ولا يمكن تنبيه هذا الشعور في أمة من أمم العالم ما لم تدرك أولاً أن لها شرفاً مهاناً تجب عليها صيانتها، وحقاً مهضوماً يترتب عليها المطالبة به. متى أخذ الذل وصغر النفس من الفرد مأخذهما، حسب الاستبداد حقاً طبيعياً من حقوق الحاكم والطاعة واجباً طبيعياً من واجبات المحكوم فتصبح الأمم كالقطعان يسيرها الحاكم كما يسير الراعي خرافه. ولقد تقدم معنا في المقالة السابقة^(٥) أن الاستبداد السُّنَّة الأصيلية في الكون، جرى عليها الحاكم بقوة ذراعه وبطشه، فهو لم يتناول الاستبداد من أيدي الرعية بل أكرههم على قبوله بالقوة.

تكسير قيود الاستبداد

لا بد في تكسير قيود الاستبداد من إحدى طريقتين: أولاً ما يحاسب الحاكم نفسه أمام ضميره ويشعر أنه مغتصب حقاً ليس له ويجري على سُنَّة العدل القائلة بتسليم شؤون الرعية إلى أهلها. وثانيتهما أن تحاسب الرعية نفسها أمام شرفها وتدرك أن حاكمها المستبد إنما هو مغتصب حقاً من حقوقها بل حقوقها كلها، وأن لا بد لها في نمو أعضائها نمواً طبيعياً من إزالة ضغط الاستبداد بطريقة من الطرق المشروعة.

تنازل الحاكم عن الاستبداد من نفسه وباختياره أمر نادر الحدوث جداً في تاريخ العالم، وليس له في التاريخ الحديث على ما نذكر مثيلاً إلا في اليابان.

اذلال النفوس

الاستبداد يذلُّ النفوس اذلالاً. ففعله فيها أشبه بفعل الهموم في الارادة، فهو لا يزال يضغطها حتى يشلها. ومتى ألفت النفس الذل تعودته كما يتعود الرجل مناولة الأفيون. والحقيقة أن تأثير الاستبداد في الاخلاق أشبه بتأثير الأفيون في الدماغ، فانه ينبهاها أولاً ثم لا يلبث أن يخدرها.

متى تخدرت النفس لم تعد تؤثر فيها المنبهات العادية. فكما أن

(٥) مقال «الاستبداد والشرق».

القرص قد لا يوقظ النائم الذي خدرته العقاقير الكيماوية، كذلك لا يؤثر في النفس قرص الاستبداد ووخز الظلم والجور. وكما ان الرجل قد يفقد كل شعور ولا يظهر فيه اثر للحياة الا بالنفس والنبض اللذين هما من خصائص الأعمال غير الارادية في البنية، كذلك قد لا يبقى في المستبد به اثر من آثار القوى النفسية الراقية بل ينحط الى المرتبة الحيوانية البحتة التي لا يفرق فيها في شيء عن العجماوات الا برضوخه للاستبداد ، وترفع هذه عنه في كثير من الأحيان، لان الفرس قد يلبط والهرقد يخدش والكلب قد يعض أما الرجل الذي خدره الاستبداد فانه يتحمل كل إهانة كل ظلم دون ان ينبس بكلمة.

قد يظن بعض القراء ان في هذا الكلام مبالغة، والصحيح انه دون الحقيقة بمراحل. لان فريقاً من ملوك افريقيا المتوحشين وامرائها كان يقتات بلحوم عبيده من البشر، وكان يختار من يظن لحمه لذيق الطعم فيأمر بذبحه، فيسير الرقيق الى النطع سير الشاة الى الذبح دون تذمر او كلمة ودون ان يرى عبيد الملك في ذلك شيئاً من الظلم والجور. وقد لا يزال بعض هؤلاء الامراء المتوحشين على هذه الحال في الجهات المتوغلّة من مجاهل تلك القارة المظلمة، فلا الملك ولا الرجل المذبوح ولا الجزار البشري حسب ان في هذا العمل خروجاً عن المألوف بل حسبوا الخروج عن المألوف ان يرى أحد من البشر في ذلك شيئاً من الغرابة.

وكان اذا توفي ملك أو أمير من هؤلاء القوم دفنوا معه نساءه وجواريه وآخرين من أتباعه أحياء، فيقبل هؤلاء على الموت دون أن يروا في ذلك شيئاً من الظلم والفضاعة التي لا تقدر الطبيعة البشرية الحرة على احتمالها.

قس على ما تقدم المجازر البشرية التي كان يقوم بها الملوك والامبراطرة الأقدمون بشهر حرب على أمة أخرى لمجرد أغراض ذاتية أو أحقاد شخصية لا علاقة لأمتة بها. ولا يزال بعض الملوك حتى الساعة يشهرون مثل هذه الحرب ويسوقون جيوشهم الى المجازر وأمهم الى الولايات لغير منفعة الأمة. والحقيقة ان الأمة لو خيرت في ذلك لما اختارت هذه الوسيلة، التي لا يجوز الالتجاء اليها الا متى أهين شرفها أو أصبح كيانها واستقلالها مهددين بالمخاطر التي قد تفضي بها الى الفناء والبوار. فرضوخ الأمم لحكامها في خوض غمار المنايا على الرغم منها انما هو

ضرب من ضروب الجبن النفسي والجسدي، ومظهر من مظاهر تخدر الاخلاق والنفوس بفعل الاستبداد الذي لا تزال آثاره بادية حتى في أرقى الامم وابذخ الممالك.

تشوه النفس

كما تنمو أرجل الصينيات الموضوعة في قوالب حديدية نمواً مشوهاً، كذلك تنمو النفس تحت ضغط الاستبداد نمواً شاذاً يصرفها عن وجهة الكمال الذي يجب أن يكون مطمح كل نفس كبيرة. متى تحولت النفس عن طريق الكمال ذهبت في سبيل الشذوذ كل مذهب، وأصبح الجميل في عيني باصرتها قبيحاً والقبيح جميلاً. فكما ان الجمال يقوم عند بعض برابرة أفريقيا بكبر الشفاه وغلظها وتفلطح الأنف والوجنتين وأشباه ذلك مما هو آية القبح والشناعة، كذلك يقوم جمال النفوس عند من أحنوا رقابهم لنير الاستبداد وجعلوا ظهورهم مطايا للجور والظلم باطاعة الحكام اطاعة عمياء وتقديس ارادتهم وتآليه أشخاصهم والمباراة في تعفير الوجوه أمامهم، وسموا العبودية والذل وطنية واخلاصاً وعزة النفس والاباء خيانة وعقوقاً.

الاستبداد وحاسة الثقل

المشهور ان الحواس خمس، ولكن فريقاً من العلماء يقول بوجود حاسة سادسة أطلق عليها اسم حاسة الثقل، وهي الحاسة التي يمكننا بواسطتها ادراك ثقل الأجسام. فاذا رفعنا بيدنا مادة من المواد ادركنا ثقلها بالحاسة المشار اليها وقدرنا كميته، وكذلك اذا وضعنا على ظهورنا حملاً من الأحمال.

ولا ريب في ان هذه الحاسة قوية جداً في الأمم الراضحة تحت ضغط الاستبداد، لأن الضغط والثقل ضربان متشابهان من ضروب القوة أصلهما واحد وهو الجاذبية، ويمكن تحويل الواحد منهما الى الآخر كما يمكن تحويل النور الى حرارة والحرارة الى نور... وأصل هذين المظهرين واحد وهو الحركة.

وعلة نمو هذه الحاسة في الأمم المستبد بها انما هو فرط استعمالها جرياً على القاعدة الطبيعية وهي ان الحاسة الأكثر استعمالاً من سواها

تكون أقوى من غيرها.

والغريب ان هذه الحاسة قوية في الشرقيين الى حد أصبح عنده الشعور بثقل على الظهر امراً طبيعياً لا راحة لصاحبه إلا به. فلقد إمتطت ظهور الشرق دول شتى منذ أيام اسكندر المقدوني حتى عهدنا الحاضر وأصبح الشعور بالثقل شرطاً ضرورياً لراحته، فاذا نزل عن ظهر الشرقي راكب تبرم وتأفف وشعر انه في موقف غير طبيعي وملاً العالم صراخاً يطلب راكباً آخر، فاذا لم يلب أحد نداه هام على وجهه يفتش عن راجل يعلو ظهره. ولا يشعر انه في موقف طبيعي إلا متى نال امنيته واكتفت حاسة الثقل بما هو ضروري لها.

الأسماك البحرية والاسماك البشرية

في الاوقيانسات اسماك تعيش على أبعاد متفاوتة من الغور، فمنها أسماك سطحية وأخرى وسطى وأخرى غائرة تعيش في القاع. وذلك من أغرب مظاهر الحياة الحيوانية لأن ضغط الماء في تلك الأعماق المترامية الاطراف بالغ حدا فاحشاً يستحيل عنده بقاء أضخم المدرعات أو الغواصات سليمة لأنه يسحق المدرعة سحقاً كما تسحق المطرقة بيضة، ولكن رغماً من كل ذلك يمكن الاسماك التي تعيش هنالك من البقاء حية. بيد انك اذا أصعدت هذه الأسماك بطريقة من الطرق الى سطح الأوقيانوس، ترهلت بنياتها وتفتتت وهلكت في مثل غمض الجفن. ويقال مثل ذلك في الأسماك التي تعيش على سطوح الاوقيانسات فانها اذا انزلت الى عمق غائر لم تستطع احتمال الضغط فتموت حالاً. ولا ريب في ان الأسماك الغائرة قد تعودت هذا الضغط الهائل بالتدريج حتى أصبح ذلك الوسط بيئة طبيعية لها. وهي الحال التي عليها الشرقيون بالاجمال مع فوارق، فان الاستبداد ضغط نفوسهم ضغطاً تدريجياً هائلاً حتى أصبح الاستبداد محيطاً طبيعياً لهم، فاذا حاول أحد اخراجهم منه حسبه عدواً يريد بهم شراً.

سباق الاستبداد

متى خدّر الذل نفوس الأمم كلّت حواسها وأصبح ايقاظها من هذه الحال المرضية امراً متعذراً، وهي حال أشبه بالسبات الذي يصيب

المرضى أثناء الحميات بفعل السموم المرضية. ويختلف سببات المرضى تبعاً لشدة العلة وبنية العليل، فمن السببات ما هو خفيف توقظ صاحبه الأصوات العالية، ومنه ما هو عميق لا يؤثر في المصاب به صراخ أو صياح فيظل يغط في نومه غطيماً دون أن يعي على شيء.

وأول أعراض السببات نعاس يثقل الجفنين فيغمض العليل عينيه، وهي الحال التي تكون عليها الأمة في أول أطوار الاستبداد فلا يهتما ما يجري حولها بل تغمض جفنها على القذى ويدب اليها النعاس، وهو أول أعراض هذا السببات الخطر الذي يقضي بالأمم إلى أوحش العواقب..

وكما يعالج السببات الناشء عن التسمم بالافيون بالصراخ والصياح ومناداة العليل حتى يستيقظ قبل أن يأخذ السم كل مفعوله فيه، كذلك يجب على أطباء الهيئة الاجتماعية في الأمم الراضخة تحت سببات الاستبداد أن يصيحوا في الأمة وينادوها ليوقظوها من هذا الخمول المرضي قبل أن يشتد السببات عليها ويصير إيقاظها بعد ذلك أمراً صعب المنال.

مهما اشتد السببات على الأمة لا يجوز للطبيب أن يقنط أو يئأس من شفائها. والطبيب الاجتماعي الذي يتخذ اليأس والقنوط شعاراً له في معالجة أمته ليس بالطبيب الذي يجوز له معالجة الأمم. فالطبيب إنما يدعى ليس فقط للمعالجة، بل لينفخ أيضاً في العليل روح النشاط ويضيء في صدره مصباح الأمل.

متى احنت أمة من الأمم عنقها لنير الاستبداد وفقدت ما كان لها من الشمم والانفة والاباء أضاعت احترام النفس. ومن أضاع احترام النفس أضاع كل شيء.

إذا أضعت مالا أو متاعاً ففي وسعك الحصول على سواه. اما اذا أضعت احترام النفس فيتعذر عليك الاستعاضة عنه بغيره، لانه أساس الرجولية ورأس مال الأخلاق، فهو المحور الذي تدور عليه أعمال الرجال كلها. ومن لا يحترم نفسه لا يحترم غيره ولا يهمه احترام الغير له.

تأثير العادة

يقول علماء الأخلاق ان العادة أشبه بطريق يفتح المرء لنفسه وسط غابة كثيفة. فعبورها المرة الأولى أمر متعذر جداً، ولكن متى عاد المرء وسلكها مرة ثانية وثالثة هان عليه ذلك حتى يصبح أخيراً السير في ذلك الطريق من أسهل الأمور.

تلك هي حال الأمة الذليلة المستعبدة، فان رضوخها للاستبداد في بدء أمرها صعب عليها جداً، ولكن متى تعودته هان عليها المرة بعد المرة حتى يسمي فيها بعد ذلك أمراً على غاية السهولة.

بل الحقيقة ان الاستبداد بالأمم ضرب من الترويض كما يروض الراكب الفرس الجموح.

الوراثة الطبيعية

متى تأصلت العادة في الجسم وجرت عليها الأفراد احقاباً طويلة من الزمن، رسخت فيهم بحكم الطبيعة وانتقلت الى نسلهم بالتقليد والوراثة الطبيعية. ولقد أدركت العرب من قرون طويلة ما للوراثة من التأثير الكبير في الخيل، فهم يحفظون انسابها ويسطرون الحجاج الناطقة بما هو أصيل منها ويحتفظون بها، وهم مصيبون في ذلك كل الاصابة. تأصل الاستبداد في حكام الشرق حتى أصبح طبيعة فيهم تنتقل

[نشر هذا المقال تحت باب «مباحث عمرانية» في «المجلة» الجزء الخامس، السنة الثانية، بوانس ايرس في ١٥ آب سنة ١٩١٦].

بالوراثة من الأب الى الابن. وتأصل الذل في قلوب الشرقيين حتى أصبح شنشنة طبيعية فيهم يتوارثه الخلف عن السلف .
لذلك كان ايقاظ الشرقيين من هذا الخمول امراً متعذراً جداً لانه لا بد في ذلك من أمرين: الواحد منهما ازالة طبيعة الحاكم المستبد، والآخر ازالة طبيعة الذل في الأمة المستبد بها.

فقدان الثقة بالنفس

متى فقد الانسان احترامه لنفسه فقد أيضاً الثقة بها وبغيره، وسار في كل أعماله تبعاً لأهواء المتسلط عليه كما يسير الفرس تبعاً لمشية راکبه. وهو حال الأمم التي أذلها الاستبداد فإنها تفقد كل ثقة بنفسها، فلا تخطو خطوة واحدة إلا بعد ان تنظر الى حكومتها لترى ما تريد هذه الحكومة منها وفي أي الخطط تريد أن تسيرها.
وكما يسير الراكب فرسه باللجام كذلك تسير الحكام اممها بأحكامها .
وكما يسير الفرس في طريقه دون أن يعرف لمَ هو سائر في تلك الطريق دون سواها، كذلك تجري الأمم في السبل التي اختطها حكامها لها دون ان تسأل نفسها لمَ هي سائرة في ذلك السبيل.

شلل الإرادة

ينزع الحاكم المستبد من الأمة كل ارادة، وتشعر الأمة نفسها انها خلو منها بل ترى ان النواميس الطبيعية تقضي عليها بذلك، لأن من صرف حياته آلة في يد غيره يحركه كما يحرك البخار الآلات الميكانيكية لا يقدر على التفكير بل يحسب التفكير ضرباً من التمرد والعصيان.
متى بلغ الذل من الأمم كل مبلغه حسبت الارادة جريمة لا تغتفر، واذا سولت النفس لها الوقوف لحظة للتفكير في شؤونها ساطتها الحكام بأسواط الاستبداد كما يسوط الراكب فرسه ليحثه على الجري.
اذا قاطعت الطرفين السفليين بحيث يقع مابض الطرف الواحد على ركبة الطرف الآخر ولبثت برهة طويلة على هذا الوضع، شعرت عند النهوض بخدر شديد قد يمنعك عن الحركة بتاتاً، وعلته ضغط الركبة العصب الذي يسير في تنية المابض الى الساق. وتكون شدة الخدر الذي يشعر به المرء ومدته بالنسبة الى شدة الضغط ومدته.

ما يفعله الضغط في العصب المابضي يفعله الاستبداد في ارادة الأمة فيخدرها حتى يميمت شعورها. وشدة الخدر في شعور الأمة ومدته تتوقف على وطأة الاستبداد وأجله.

أدمغة الأمم

عضو الشعور في الجسم هو الدماغ دون سواه. فاذا أصابتك لطمة في الساق شعرت بألم فيها، ولكن ليست الساق هي التي تشعر بالألم بل الدماغ بدليل انه اذا قطع عصب الحس الموصل بين الساق والدماغ فقدت الساق كل شعور فيمكنك ان ذاك وخزها أو جرحها أو كيها أو احراقها دون أن تشعر بألم على الإطلاق.

وقس على ما تقدم الخدر الذي أتينا على بيانه قبيل هذا، فالشعور به في الساق ظاهرة كاذبة من ظواهر الحياة والواقع ان الدماغ هو العضو الذي يشعر بالخدر.

اذا كانت الأمة أشبه بالجسم البشري كان الاستبداد أشبه بالضغط الطبيعي. فمن هم يا ترى أدمغة الأمم؟

أدمغة الأمم رجالها المفكرون والشاعرون وقادة الرأي العام فيها، فمتى وقع ضغط الاستبداد على الأمة كان عضو الشعور فيها هؤلاء الرجال. الضغط واقع على أعصاب الأمة، اما العضو الذي يشعر به فهو الدماغ لا الأعصاب.

كان قادة الرأي العام في كل أمة أول الشعاعين بضغط الاستبداد والعاملين على ازالته بكل وسيلة ممكنة. هم أول الصائحين في وجه المستبدين والمنبهين إلى الأخطار التي تنجم عن الاستبداد والداعين الى ازالة هذا الضغط خوفاً من القضاء على كيان امتهم.

مقياس الشعور

لم يخترع العلماء حتى الآن آلة يمكنهم بها قياس الشعور وتعيين درجاته، ولكننا نظن ان الفعل المنعكس يفي بالغرض المطلوب.

اذا ادنى أحد من اصبعك جذوة من نار حتى لامستها، أبعدت اصبعك حالا عن الجذوة إبعاداً فجائياً. فهذه الحركة نتيجة الفعل المنعكس، وكيفية ذلك ان الشعور ينعكس عن الدماغ كما ينعكس النور

عن المرأة.

لكل فعل منعكس ثلاثة أطوار: أولهما نقل عصب الحس التأثير من الجسم المؤثر الى الدماغ. ثانيهما شعور الدماغ بالعامل المؤثر. ثالثهما انعكاس التأثير عن عصب الحركة الى العضلات فيحركها. متى كان الدماغ شديد الحس عكس الشعور حالاً الى أعصاب الحركة، اما اذا كان بليداً أو متخدراً فاما ان يبطىء بأفعاله المنعكسة أو لا يقوم بها على الاطلاق.

لذلك كان مقياس شعور الأمة بالاستبداد الأفعال المنعكسة التي تقوم بها بعد شعورها بالجور. فاذا كان دماغها حساساً انعكست عنه مفاعيل الشعور وظهرت بوادر الفعل المنعكس بما يترتب عليه من الحركات التي من شأنها دفع الأذى أو تجنبه كما يفعل الفرد متى شعر باحتراق أصبعه.

حيوية الامة

متى رأيت امة يستبد بها حاكمها ويرهقها بالظلم ويذيقها من صنوف الخسف والذل اشكالا والواناً دون ان يصدر منها فعل منعكس قتلدفع الأذى عنها، فاعلم ان تلك الأمة بالغة منتهى درجات الخطر وانها متراوحة بين الحياة والموت.

بطلان الأفعال المنعكسة في الجسم دليل على فقدان الشعور بالمرّة، وعلى ان الدماغ لا يقوم بالوظيفة التي أوجدته الطبيعة لأجلها. وقد تبلغ الحال من الخطورة مبلغاً لا يمكن معها العاقل من التمييز بين الموت والحياة.

يتعذر جدا تشخيص الموت تشخيصاً جازماً لا ظل شبهة فيه. ومن الحيوانات ضرب يسمى بالحيوانات الشاتئة، وقد سميت كذلك لانها تنام اثناء الشتاء نوماً طويلاً مستمراً تبطؤ فيه الأعمال الحيوية بطئاً فاحشاً حتى يخيل الى الناظر اليها انها ميتة، وهي على الحقيقة لا تزال حية. فاذا انقضى الشتاء وأقبل الربيع نفضت عنها غبار الموت وعادت اعمالها الحيوية الى ما كانت عليه سابقاً.

بل ان هنالك اسماكاً جمد حولها الماء جليداً، وظلت على هذه الحال سنين فلما استخرجت من الجليد ووضعت في اناء يتضمن ماء عادت

اليها الحياة.

لذلك لا يجوز ان يؤخذ بطلان الفعل المنعكس دائماً دليلاً باتاً على الموت أو قطع الرجاء من الحياة. وكما تبطؤ أو تبطل احياناً الوظائف الحيوية لفريق من الحيوانات أثناء الشتاء، كذلك قد تبطؤ الأفعال المنعكسة للأمم أثناء الاستبداد حتى يخيّل الى الناظر اليها انها ميتة لا محالة... والحقيقة انها تكون فقط شاتئة.

نريد بحيوية الأمم مقدرتها على البقاء حية زمنياً طويلاً رغماً من كل الطوارئ الفجائية التي تبعث على الموت. وكما ان آجال الأمم تطول أكثر بما لا يقدر من آجال افرادها، كذلك تكون حيوية الأمم أقوى بما لا يقدر من حيوية الافراد.

روح الأمة

من أصعب الأمور قتل أرواح الأمم. ومن الأمم من لا يمكن قتل أرواحها إلا بقتل أفرادها كلها مهما حل بها من ضروب المغارم والحيف. وهناك الأمة البولونية التي قاست في الماضي من ضروب الاستبداد ما يكاد يعجز القلم عن وصفه، ولا تزال تقاسي مثل ذلك حتى الآن. ولكن لم يكن للاستبداد ان يقتل ذلك الروح السامي الذي يمازج نفوس أهلها وتيارات دمائهم.

خزن الشعور

اذا لم تقم الأمة بالأفعال المنعكسة حال شعورها بالاستبداد فذلك ليس دائماً دليلاً على ان الأمة عادمة الشعور لأن الدماغ قد يخزن الشعور عمداً دون ان يأتي بفعل منعكس قط كما يخزن التاجر حبوبه أو بضاعته.

متى أحجمت الأمة عن إتيان الفعل المنعكس بسبب خزن الشعور، كان ذلك من أعظم الأدلة على قوة ارادتها وانها تملك زمام نفسها وتصرف شؤونها طبقاً لما تقتضيه أحكام العقل.

كما ان رضوخ الأمة لعوامل الاستبداد وعدم قيامها بالأفعال المنعكسة بسبب فقدان شعور الدماغ دليل أنه خطر جداً على الأمة ، كذلك يكون استئثار الأمة اثناء الاستبداد وعدم صدور أفعال منعكسة عنها بسبب خزن الشعور دليلاً خطراً جداً على الحاكم المستبد.

فيترتب على ما تقدم ان سكون الأمم يكون ناشئاً عن واحد من امرين: أولهما بطلان شعور الدماغ، وهو عرض من أعراض الموت أو الاشراف عليه. وثانيهما خزن الشعور، وهو عرض من أعراض الحياة القومية أو بدء انبثاقها.

متى أخذت الأمم في خزن شعورها كان ذلك دليلاً على قرب انفجار البركان.

طبائع الاستبداد - ٤

متى أذل استبداد نفس الأمة، عارض نمو شخصيتها كما يعارض الضغط نمو الأعضاء. فكما أن لكل عضو من أعضاء الجسم شكلاً خاصاً وحجماً محدوداً، كذلك لكل أمة شكل عقلي ووجهة خلقية لا تظهران تمام الظهور الا متى انفسح لهما مجال النماء.

لذلك كانت شخصيات الأمم في غابر الدهور أيام الاستبداد أقل ظهوراً منها الآن، وخصوصاً فيما يختص منها بمناحيها السياسية. ولم يبدُ نموؤها إلا في الجهات التي لم يكن عليها ضغط أو كان الضغط فيها أقل منه في جهاتها الأخرى.

الاستبداد والقرون المظلمة

كان ضغط الاستبداد في القرون المظلمة عاماً للعالم كله خلا بقاع قليلة من الأرض، ولم تخلُ هذه منه الا زمناً معيناً فقط. لذلك وجدت ان وجهة ارتقاء الأمم كانت منحصرة في الصناعة والتجارة والحرب وأشباهاها من الفنون التي كان يباح للناس استعمالها. أما الوجهة السياسية فان تطورها لبث في الأمم المستبد بها دهرأ طويلاً دون تغيير إلا ما كان يأمر به الحكام المستبدون.

لهذا كان نوع الحكومات والأحكام في البلدان الأوروبية التي لم يكن فيها أثر للاستبداد راقياً جداً، وعلى نوع أخص في بلاد الرومان واليونان اللتين كانتا أرقى البلدان من الوجهة الدستورية. ولذلك تجد الأحكام الرومانية أرقى نوعها، وعنها أخذ أكثر الأمم أحكامها في العصور التالية ولا يزال يعمل البشر بكثير منها حتى يومنا هذا.

الاستبداد والأحكام العرفية

الأحكام العرفية سواء في الأزمان الغابرة أو في يومنا هذا أثر من آثار الاستبداد. وكانت إرادة الحاكم المطلقة في أكثر البلدان الشريعة غير المكتوبة التي يجري عليها البشر في خلافهم الى أن قامت مقامها الشرائع

[نشر هذا المقال تحت باب «مباحث عمرانية» في «المجلة»، الجزء السابع، السنة الثانية، بوانس ايرس في ١٥ أيلول سنة ١٩١٦].

المسيطرة.

فالأحكام العرفية التي أعلنتها أرقى حكومات العالم أثناء هذه الحرب^(١) إنما هي عود على بدء ورجوع الى سلطة الاستبداد القديمة التي مصدرها ارادة الحاكم المطلقة، وهي تقضي بضغط كل رأي أو فكر أو تعبير لا تراه الحكومة مطابقاً لمصلحتها. والفرق بين استبداد المجالس العرفية الحاضرة واستبداد الحكام قديماً ان الثاني كان بأمر الحاكم نفسه أما الأول فهو بأمر حكومة البلاد.

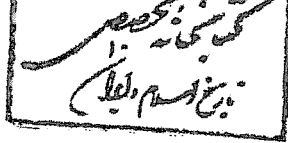
يجوز لنا ان نسمي استبداد الحكومات المتمدنة الحالي في انشاء المحاكم العرفية استبداداً عرفياً وهو لا يجوز لفرد من الأفراد ان يفعل فعلاً ما أو يقول قولاً يخالف رغائب الحكومات القابضة على أزمة الأحكام. فالدعوة الى الصلح أو انتقاد عمل الحكومة أو التنديد بالخطط الحربية أعمال تدعو أصحابها الى المحاكمة.

لذلك ترى ضغط الأفكار واضحاً في منتصف العقد الثاني من القرن العشرين على ما كان عليه سابقاً في ازمة الاستبداد. فاذا كانت الحال هكذا في عصر النور والعرفان مع ان زمن الاستبداد العرفي لم يتجاوز حتى الآن سنتين، فما قولك في استبداد الحكام أثناء الصورة الماضية يوم كان الاستبداد في أشد وطأته وعاماً كل طبقات الأمم مع فوارق قليلة؟ لا يمكن الاستبداد العرفي ان يغير اخلاق الأمة. فاذا الجم لسانها فالى حين ثم تعود الحرية الى ما كانت عليه سابقاً، خلافاً للاستبداد المطلق الذي اتخذه الحكام في تاريخ الدهور سنة جروا عليها في جميع أعمالهم ، فان آثاره كانت ظاهرة فيهم كل الظهور وتأثيره في الأمة واضح راسخ فيها رديحاً من الزمن.

قوة الممانعة

كما أن لكل مادة من المواد قوة لممانعة الضغط تختلف باختلاف قوام المادة ونوعها، كذلك لكل أمة قوة لممانعة الاستبداد تختلف باختلاف درجة صلابة الأمة ومادتها. فاذا كانت من طينة رخوة، لانت وانبسبت وفعل فيها الضغط فعلاً متساوياً في جميع أجزائها خلا الأجزاء التي هي أشد صلابة من سواها.

(١) المقصود الحرب العالمية الأولى.



قام في كل أمة من أمم العالم رجال لا يرضخون للاستبداد ولا يقيمون على الذل، فكانوا وسط عجيبة الأمة التي ضغطها الاستبداد أشبه بحجارة من الصوان قد تنسحق ولكنها لا تلتين.

كان هؤلاء النواخب في كل عصر وكل أمة صخوراً تحطمت عليها قوات الاستبداد وأنواراً متألفة وسط ظلام دامس، لذلك كانوا على الدوام هدفاً لسهام الاستبداد وغرضاً للانتقامه.

متى شعر المستبد بصلاية الأمة وقوتها على الممانعة خفف ضغط الاستبداد وألان من شدته، لان الضغط لا يرى مجالاً لفعله إلا في المواضع الضعيفة التي لا تقوى على ممانعته. اما اذا رأى في الأمة ضعفاً واستسلاماً الى الجور زاد في ظلمها وارهاقها.

ومتى ظهر من الأمة ممانعة للاستبداد بعد ان كانت سابقاً لينة ضعيفة كان ذلك عرضاً شديداً للخطر على المستبد والأمة المستبد بها معا، لأن الاستبداد لا يطيق المقاومة حيث كان يرى قبلاً لينا، ولا ممانعة حيث كان لا يرى الا رضوخاً. وطبيعي ان ذلك يثير في صدره الحنق ليحاول الانتقام بكل وسيلة من وسائل الاستبداد.

أما وجه الخطر على المستبد فلأن الأمة متى اخذت في الممانعة تبتدىء تشعر بان فيها قوة قادرة على وقايتها الاستبداد، وانه يترتب عليها ان ترفع نيره عن عائقها بكل وسيلة ممكنة.

قلوب الأمم وأدمغتها

اذا رزح جسم الفرد تحت ضربة طاحنة أو بسبب علة من العلل، فقد يفقد كل شعور ويصبح جثة لا حراك بها ولا يظهر فيه ما يدل على الحياة الا النفس والنبض. وهذان العملان لا علاقة لهما بالارادة على الاطلاق، فليس في وسع انسان ان يحبس نفسه أو يوقف عمل قلبه على الاطلاق. كذلك يصيب الأمم الرازحة تحت الظلم والجور، فقد يبلغ بها ضغط الاستبداد حداً يفقدها كل شعور، فلا تعي على شيء ولكن تظل فيها الحياة بفعل القلب والرتتين.

من هم قلوب الأمم وراثتها؟

قلوب الأمم وراثتها هم أولئك الأفراد الذين تتوقف عليهم حياة الأمم السياسية. هم نبغاؤها المفكرون وقادة آرائها المخلصون. وكما ان القلب

والرئتين تعمل في جسم الفرد دون ان يشعر بعملها، كذلك يعمل هؤلاء النوابغ فيجدون دم الأمة الفاسد ويرسلون الى أعضائها دماً نقياً دون ان تشعر بهم.

يشتغل هؤلاء المصلحون النوابغ ليلاً ونهاراً كما يشتغل القلب. وكما أن حياة الفرد تتوقف على عمل القلب، كذلك تتوقف حياة الأمة السياسية على هؤلاء القلوب الذين يضحون قواهم في سبيل حياة امتهم كما يضحى القلب قواه في سبيل حياة الجسم.

الاستبداد وروح العصبية

متى بلغ الاستبداد في الأمة اشده، أضعف التضامن وأزال منها روح العصبية الذي يتوقف عليه قوام الأمة السياسي. وهو من أشد أعراض الاستبداد خطراً وأقتلها لمجموع الأمة، لأنها تفقد العروة الوثقى التي كانت تربطها بعضها ببعض. فتصبح الأمة بعد ذلك اجزاء مبعثرة لا رابطة بينها إلا رابطة السكنى في بقعة واحدة من الأرض، وهي جامعة عقيمة متى تجردت من معنى التضامن.

ولما كانت عصبية الأمم أكبر جامعة لها وأمتن أساس تبني عليه القومية الحققة، كانت الوسيلة التي تذرع بها المستبدون للقضاء على روح العصبية التفريق بين عناصر الأمة وزرع بذور الشحناء والضغائن في قلوبها والتذرع بكل ذريعة ممكنة لفصم ما استحكم من عرى اتفاقها. ومتى زال من صدور الأمة شعورها بسيادة نفسها، وهنت فيها الجامعة العصبية وفكك الخنوع عراها عروة عروة، وأصبح كل فرد يعيش لنفسه دون ان يكون أمامه غرض وطني كبير، لأن الأغراض الوطنية لا تقوم الا بالجامعة العصبية.

لا تزول عصبية الأمة دفعة واحدة. وليس في إمكان بشر أن يزيلها على هذه الصورة، الا اذا أفناها عن بكرة أبيها أو ضربها ضربة طاحنة شتتت شملها تشتيتاً لا أمل لها بعده باللقاء. ولكن آمال الأمم لا تموت بسهولة فيظل الرجاء يخفق بين أضالع أفرادها خفقان القلب.

والغالب ان يقضي الاستبداد على روح العصبية بالتدريج فيضعفه بالضغط شيئاً فشيئاً حتى يزيله. والمستبدون الذين يحاولون نزع روح العصبية من الأمم التي اخضعوها بالعنف والقوة ويبدلون جهدهم

للقضاء على وطنية تلك الأمم، لا يفقهون طبائع الاستبداد وشرائعه، ولا يكون من وراء خطتهم غالباً إلا الفشل والخيبة. أما المستبدون الذين اتخذوا الاستبداد فناً وزاولوه صناعة فيجرون في ازالة روح العصبية على غير هذه الخطة. فنابغة الاستبداد من ينزع من صدر الأمة روح العصبية دون ان تشعر بالم أثناء هذه العملية الجراحية.

الغيرية والانانية

تقتضي روح التضامن صفة الغيرية أو محبة الغير. والعصبية الراقية تقوم بتضحية الفرد ماله أو دمه في سبيل المجرع. فالعصبية من أقوى عوامل الغيرية، وبدون غيرية لا عصبية على الاطلاق ومتى شعر الفرد بأنه جزء من مجموع عام له غرض خاص ومطمح يرمي اليه، لم يتعذر عليه القيام بما تطلب منه المصلحة العامة.

الاستبداد لا يناقش ، لأن المناقشة تكون بين فريقين للواحد منهما حق سؤال الآخر والاعتراض عليه . والاستبداد لا يقبل اعتراضاً ولا يعترف بحق للآخرين عليه ، فهو يفرض عليهم واجبات دون ان يعترف لهم بحقوق .

متى قبل الاستبداد مناقشة كان ذلك دليلاً على واحد من امرين : فهو يناقش إما لخوفه الامة ، أو ليصنع اعماله بشيء من صبغة العدل . لذلك كانت المناقشة في الحالتين كليهما دليل العجز والضعف . ارادة الاستبداد شريعة البلاد . وكما لا يطبق القاضي مناقشة في عدل القانون او جوره كذلك لا يطبق الاستبداد مناقشة في صوابية ارادته او اخطائها ، لأن اساس الاستبداد الارادة المطلقة التي لا يضطر صاحبها الى اداء حساب عنها في حال من الاحوال . الاستبداد القوي يأمر ولكنه لا يناقش .

الاستبداد والمناقشة

متى اذعن الاستبداد للمناقشة كان ذلك دليلاً على بدآة تقلص ظله ، فهو بمثابة اقرار منه بوجود حق او مبدأ تجوز المناقشة فيه لتبيين وجه الصواب . وبعبارة اخرى ان الاستبداد يعترف بوجود شيء يعلوه يسمى عدلاً وهو ما لم يكن يعترف به قبلاً ، لأن العدل في عرفه ما اعتبره هو عدلاً وما قالت به ارادته المطلقة التي لا تقبل جدلاً .

هذا الطور اشد اطوار الامة خطراً ، لأنه فجر الطور الانتقالي من العبودية الى الحرية ومن الظلمة الى النور ومن الارادة المطلقة الى القوانين العادلة ومن الاستبداد الى الدستور .

لا يذعن الاستبداد للمناقشة في امر ما الا بالقوة ، ولا يصيخ سماعاً الى مبدأ المفاوضة الا متى رأى من الامة تحفزاً للوثوب . فهو انما يناقش ويفاوض الا ليربح وقتاً يعد في خلاله معدّات البطش بالامة والتنكيل برجالها .

[نشر هذا المقال تحت باب « مباحث عمرانية » في « المجلة » ، السنة الثانية ، بوانس ايرس في ١٥ تشرين الاول سنة ١٩١٦ .]

قبول الاستبداد بالمفاوضة اشبه بالهدنة التي يطلبها المحارب ، لا لدفن القتلى بل لانتظار النجدة التي يرجو ان يقضي بها على عدوه .

العراك الهائل

في هذا الطور الخطر تلتقي في ساحة العراك لأول مرة قوتان هائلتان متضادتان الواحدة منهما قوة الفرد الجبار والآخرى قوة الامة الجبارة . متى التقى هذان العدوان اللدودان في ساحات الوغى التحما في عراك هائل مميت ، لا ينفك فيه احدهما عن الآخر الا صارعاً او مصروعاً . اذا كان المستبد نابغة في الاستبداد شلَّ قوة الامة قبل ان تبلغ اشدها ، كما شلَّها قيصر في مجلس السناتو وكما شلَّها كرومول في مجلس الامة حيث دخل على نواب الشعب وطردهم بحد السيف قائلاً لهم ان الله نبذهم ، وكما شلَّها نابليون بونابرت بعد عودته من القطر المصري وهجوم انصاره على ممثلي الامة الذين اضطروا الى الهرب قفزاً من النوافذ ، وكما شلَّها عبد الحميد لحل مجلس المبعوثان الاول والقضاء على كل حركة دستورية .

اما اذا كان المستبد ضعيفاً يتراوح بين الاستبداد والحرية كان الخطر الذي يتهدد الامة كبيراً جداً كما كان لويس السادس عشر ، لأن ضعفه يجرىء الامة على الاستخفاف به ، وجنوحه تارة الى الاستبعاد وطورا الى الحرية يزيد في حنقها عليه .

الاستبداد القوي والاستبداد الضعيف

المستبد النابغة الفتاك اقل خطراً على الامة من المستبد الضعيف المترجرج الذي يعرج بين الفرقتين ولا يعقد العزيمة على خطة اساسها الجراءة والمخاطرة .

لما بدت دلائل العصيان في باريز في اوائل الثورة الفرنسية واخذت الجماهير تحتشد في الشوارع ، أمر الملك لويس السادس عشر الجنود باطلاق البنادق على الشعب ، ولكنه امر باطلاق قراطيس بارودية لا رصاص فيها . فكانت النتيجة ان الشعب لما لم يرَ تأثيراً للنيران زاد في تماديه وعصيانه فاضطرت الجنود بعد ذلك الى اطلاق الرصاص ، ولكن بعد فوات الزمن ، فهلك أثناء تلك الثورة خلق كثير . ولما حاول الشعب

الافرنسي ان ينحو هذا النحو ايام الامبراطور نابليون الكبير وأخذ يتألب في الشوارع ، امر الامبراطور بتصويب المدافع المحشوة قنابل واطلاقها على الشعب تواء فسقط عدد من القتلى . ولما اخذ الشعب بالهرب امر الجنود باطلاق مدافع لا قنابل فيها ، فسكنت الثورة .

كان لويس السادس عشر حنوناً بطبعه وخلقه ولكن حنانه وترجرجه عاد عليه وعلى شعبه وبالأ ، خلافا لنابليون الذي كان جريئاً فتاكاً بطاشاً ولكن جرأته انقذت البلاد من الثورة الاهلية . لذلك كان نابليون ارحم بشعبه من لويس السادس عشر .

بيد ان بطش المستبد بالامة الحية لا يكون الا الى زمن محدود ، فروح الامة الحية الجريئة لا يموت . اما نابغة الاستبداد فان تأثير روحه لا يتجاوز أجله . فلم تكذ تخمد انفاس كرومول حتى قضي على استبداده ، وكانت عقيلته وبناته اول من اعترفن بسلطة ابن الملك تشارلس . ولم يكذ يأقل نجم نابليون حتى تهدم ذلك البناء الفخم الذي كان قد شاده ايام استبداده .

متى بدأت الامة المطالبة بحقوقها كانت اشبه بتيار هائل يجرف كل ما يقف في طريقه من العقبات ، او مدّ يعلو فيهدم ما يعترضه من السدود ، او نهر طغى فجرف كل ما في مسالكه من ابنية متهدمة واطلال رثة ورسوم بالية .

قد يمكنك ان توقف هذا التيار رديحاً من الزمن أو تبني سداً آخر في وجه المد المتعالي أو تقيم خزاناً لذلك النهر الطاغي ، ولكن كل ذلك لا يدفع الخطر الداهم بل يؤجله الى اجل محدود تختلف مدته باختلاف الظروف .

الاستبداد الفتاك

اذا كان الاستبداد قوي البطش فتاكاً والامة في اوائل عهد الاستيقاظ ، فقد يضربها ضربة تشل اعصابها وتفقد رشاها ، حيناً من الدهر كما مر . ولكن الامة لا تلبث ان يعود اليها رشاها ولا يتعدى ما اصابها حد الاغماء البسيط الذي يصيب احياناً الافراد ثم يزول دون ان يترك اثراً في البنية .

قد تكون الضربة التي يصوبها الاستبداد الى قلب الامة ضربة مؤلة

مدمية ، ولكننا لا نذكر ان في التاريخ مثلاً من هذه الامثلة كانت فيها امثال هذه الضربات قاضية على حيوية الامة .

لا يمكن الاستبداد ان يقضي على حياة امة الا اذا اجتاحتها بخيله ورجله وضربها ضربة طاحنة هُدمت مباني عمرانها وازالت معالم تمدنها وقطع اوصالها تقطيعاً ، ثم ادمجها في بنية الامة الفاتحة حتى تصير الامتان امة واحدة .

بيد ان الاستبداد بازاء هذا الموقف لا يلبث ان يرى نفسه امام امة جديدة لا تلبث ان تتحفز للوثوب عليه كما تحفزت الامة المندغمة ، فهو قد يقضي ببطشه على الامة المغلوبة ولكنه يوجد لنفسه عقبة جديدة وضعها هو بيده في طريقه وحبك بأصابعه عروة وثقى يستحيل عليه بعد ذلك حلها . فالامة المقهورة تعود الى الحياة في شكل جديد كما يعود الطائر الخرافي الى الحياة مبعوثاً من رماده .

الخليط الطبيعي والمركب الكيماوي

يتم ادماج الامم بطريقة من اثنتين : اولاهما ابقاؤها منفصلة عن جسم الامة الغالبة ، وثانيتها ادغامها بالامة القاهرة ادغاماً يتكون من الامتين امة واحدة جديدة .

اذا اخذت برادة من ذهب واخرى من حديد ومزجتهما معاً كان المزيج عبارة عن خليط طبيعي تكون فيه البرادتان مختلطتين ، ويمكن فرز الواحدة منهما عن الاخرى بطرق علمية . فالخلط لم يغير شيئاً من طبيعة هذين المعدنين . ولكنك اذا اخذت برادة الحديد مثلاً ووضعتها في اناء من زجاج ثم سكبت عليها حامضاً كبريتيكياً ، وهو المعروف بزيت الزاج ، تكون من المادتين مادة جديدة ليست هي حامضاً كبريتيكياً ولا هي حديد بل مادة اخرى لها خصائص متميزة . فمزيج البرادتين يُسمى في عرف العلماء خليطاً طبيعياً ، ومزيج البرادة والحامض يسمى مركباً كيماوياً .

واذا اخذت شيئاً من بيكربونات الصودا وحامض الليمون ومزجتهما كما هما ظلاً في حال الجفاف مزيجاً طبيعياً ، فبقي كل صنف من هذين الصنفين حافظاً تركيبه الكيماوي . اما اذا اضفت اليهما ماءً أُحدث حالاً فعل كيماوي غريب جداً يظهر بالفوران ، وهي الطريقة التي تُصنع بها

عادة المشروبات الفوارة أثناء الصيف ارواءً للعطش . وعلة هذا الفوران اتحاد حامض الليمون ببيكربونات الصودا اتحاداً كيمياوياً فيتغلب على الحامض الكربونيك الذي كان متحداً بالصودا ويطرده ، فينقلت هذا الحامض على شكل غاز هو علة الفوران . وتتولد حينئذ مادة جديدة هي شترات أو ليمونات الصودا ، وهذه المادة ليست حامضاً ليمونياً ولا صودا بل مركباً جديداً يختلف عن المادتين اللتين تؤلفانه كل الاختلاف سواء في الخصائص او الافعال .

قس على ذلك ملح الطعام العادي الذي نتناوله يومياً وهو مؤلف من عنصرين بسيطين هما الكلور والصوديوم . الاول منهما غاز سام قتال وهو الذي تستعمله الآن عادة الجنود المتحاربة وتطلقه على الخنادق لخلق الاعداء تسميماً ، والثاني وهو الصوديوم معدن من مركباته الصودا الكاوية التي تكوي نسيج الجسم فتهرئه تهرئة . ولكن متى اتحد هذان العنصران اتحاداً كيمياوياً تألف منهما الملح الذي هو من اعظم بركات الطبيعة .

الأمم الخليفة والامم الكيماوية

الامة المؤلفة من عناصر مختلفة ممتزجة بعضها ببعض ، دون ان يكون لكل منها من الحقوق ما للعنصر الغالب او صاحب السيادة ، خليط طبيعي اشبه ببرادتي الذهب والحديد . والامم التي اندغمت عناصرها كلها بعضها ببعض اندغاماً تاماً وتساوت فيها حقوق العناصر المغلوبة والغالبة ، مركب كيماوي اشبه بكلوريد الصوديوم او ملح الطعام .

تبقى اخلاق العناصر في الامم الخليفة متميزة كما تتميز ذرات الذهب عن ذرات الحديد متى امتزجت برادتهما . ومع ان الاحتكاك يكسب العنصر الواحد شيئاً من صفات العنصر الآخر ، فهذا الاكتساب لا يتعدى غالباً ما تكتسبه القطع الحديدية من لون الذهب متى احتكت بقطع ذهبية بسبب ما لصق بسطوحها من مادته ، وهي قشرة رقيقة لا قيمة مادية لها . فظل الذهب ذهباً والحديد حديداً .

أما اخلاق العناصر في الامم الكيماوية فتندغم بعضها ببعض اندغام عناصرها في الحقوق والواجبات حتى يتألف من تفاعلها الكيماوي اخلاق جديدة ، ليست هي اخلاق العنصر الغالب ولا اخلاق العنصر المغلوب بل مركب عمراني جديد اشبه بملح الطعام .

الاستبداد والأمم الخليفة

الاستبداد الضعيف يرمي دائماً الى ايجاد خليط طبيعي في الامم التي قهرها والى حفظ هذا الخليط الطبيعي كما هو في الامم التي يحكمها ، لأن لا قوة ذاتية له فهو انما يستمد قوته من قوة الدفع الكائنة بين هذه العناصر المختلفة .

اما الاستبداد القوي فينزع غالباً الى ادغام العناصر بعضها ببعض وتأليف امة كيماوية جديدة . فالامم الكيماوية على وجه الاجمال انما هي نتيجة الاستبداد القوي لا الضعيف .

[نشر هذا المقال تحت باب « مباحث عمرانية » في « المجلة » ، بوانس ايرس ، السنة الثانية ، في اول تشرين الثاني سنة ١٩١٦ .]

لا يتاح للامم الخليفة خلع نير الاستبداد عن عنقها . فاذا اتفق لواحدة منها القيام بذلك فهو انما يكون الى حين ، ثم لا تلبث ان تقع تحت نير عنصر آخر من عناصرها او تحت نير اجنبي عنها .
الامة الخليفة اشد الامم رضوخاً للاستبداد واشدها استعصاء على الدستور ، لأنها ليست امة واحدة بل امما متعددة ذات مطامح مختلفة ومرامي متضاربة ومنازع متنافرة .

تبدد القوى

اذا دفعت قوتان متساويتان عربية من جهة واحدة دفعاتها ضعفي قوة الواحدة منهما . اما اذا فعلت الواحدة منهما من الامام والآخرى من الورااء أفنت الواحدة الاخرى وظلت العربية جامدة .
هذا ما تفعله الامم الخليفة في شؤونها السياسية وموقفها تجاه الاستبداد ، فان كل عنصر من عناصرها يفعل على طريقة تعاكس عنصراً آخر او العناصر الاخرى كلها ، فتتبدد قوى الامة ولا يبقى منها الا الفرق بين القوة السالبة والموجبة .
تتبدد القوى اعظم اركان الاستبداد الضعيف ، لأنه لا يبقى من قوى الامة بعد افناء الواحدة منها الاخرى ما يكفي لمكافحة الاستبداد وافناؤه .

تبدد قوى الامة في هذا العراك العقيم دون الحصول على نتيجة عمرانية كما تتبدد قوة الامواج او الشلالات دون الحصول على نتيجة ميكانيكية .

الاستبداد والأمم الكيماوية

ادماج الأمة المقهورة في جسم الامة القاهرة دون انالة الاولى شيئاً من حقوقها الطبيعية ، خليط طبيعي على ما تقدمت الاشارة اليه . اما ادغامها بها ومنحها امتيازات الامة الغالبة كلها ، مركب كيماوي يؤلف امة جديدة ليست هي بالامة القاهرة ولا بالامة المقهورة بل امة عمرانية مؤلفة من التفاعل العمراني بين عنصريها .

المستبد الذي يؤلف من الأمم خليطاً طبيعياً مستبد ضعيف واهن يعيش ليومه لا لغده ولنفسه لا لسلالته ، خلافاً للمستبد الذي يدغم

الامم التي هي تحت سيطرته بعضها ببعض ادغاماً كيماوياً فهو يُعد لنفسه ولسلالته امة قوية يعتمد عليها في درء الخطوب وبسط ظل مجده على غيرها من الامم .

النبوغ الحربي والعدل

مصير الاستبداد الضعيف الى الفشل على كل حال . اما الاستبداد القوي الذي يدغم الامم التي تحت سيادته بعضها ببعض ادغاماً كيماوياً فلا تتسنى له السيطرة على هذا المركب الكيماوي الا بوسيلة من اثنتين : اولاهما ان يكون نابغة حربياً ملك قلوب الجنود حتى اصبحوا كلهم طوع بنانه ، وثانيتهما ان يكون مستبداً عادلاً .

اما اعتماد الاستبداد على النبوغ الحربي والاستيلاء على قلوب الجنود فنجاحه الى حين . قد يدوم اجل الاستبداد في مثل هذه الحال ما دام المستبد النابغة حياً ، اما متى قضي عليه وخلفه مستبد آخر اقل منه جرأة وامتلاكاً لقلوب الجند انتقضت الامة على المستبد الجديد . وقد لا يكلف اسقاطه الامة قطرة واحدة من الدماء كما جرى يوم خلعت المكسيك ملكها الاخير وتحولت الى جمهورية . او ان يكلفها خلع المستبد خسارة لا تستحق الذكر على الاطلاق كما حدث يوم خلع ملك البرتغال الاخير .

حفظ الاستبداد سيطرته على البلاد وسيادته على الامة بواسطة اقامة قسطناس العدل في الرعية آمن طريقة واسلم عاقبة من سائر الذرائع الاخرى . والاستبداد العادل اشد خطراً على دساتير الامم من كل استبداد آخر على الاطلاق .

الاستبداد العادل

نعتقد ان الاستبداد القوي العادل اصلح ضروب الاحكام طراً للعالم كله سواء في ذلك الشرق والغرب والعالم القديم والجديد . ولو امكن ايجاد استبداد عادل دائم لما كان هناك من لزوم على الاطلاق للدساتير . واذا كان في الامكان وجود هذا الاستبداد في المستقبل ، فهو يقضي بلا مشاحة على سائر ضروب الدساتير مهما كانت عادلة وراقية .

قد يتم انقاذ العالم في المستقبل من الفساد الحالي الذي تطرق اليه ونشأ عن حؤول العمران الذي اصاب التمدن الحاضر . والمستبد العادل

القوي الذي ينبغ في عصر من العصور يجب اعتباره بمثابة نبي عمراني .

بيد أن الاستبداد العادل لا يتاح له البقاء زمناً طويلاً لسبب بسيط جداً وهو عدم وجود مستبدين عادلين على الدوام ، فإذا ظهر أحدهم اليوم جاء بعده مستبد قد لا يكون عادلاً أو إذا كان عادلاً فقد لا يكون قوياً .
ازمنة ازدهار الامم في القرون المظلمة كانت على الغالب اثناء تولي زمام الممالك والبلدان حكام مستبدون عادلون . وقد كان الاكرام الذي ناله هؤلاء من امهم اشبه بالعبادة التي كانت تقدمها الامة الى الالهة . ولو بقي العدل والقوة في سلالة المستبدين بلا انقطاع لما فكّر احد في انشاء دستور على الاطلاق .

ولكن دوام الاستبداد القوي العادل ضرب من المحال ، لكون الحكام ليسوا على وتيرة واحدة او قوى عقلية ومدارك متشابهة . فناموس الوراثة الذي يعود بموجبه احياناً الفرد الى الجد عوضاً عن الاب ، واعتبارات اخرى لا مجال هنا لذكرها ، تجعل الاستبداد العادل الدائم امراً محالاً . لهذا كان وجود الدساتير في العالم ضرورة قاهرة لم يكن بداً منها .

الوازعة والاستبداد العادل

العدل في المستبد القوي من ارقى مظاهر الاخلاق ان لم يكن ارقاها كلها ، فهو دليل على ارتقاء تلك القوة الادبية السامية الكابحة جماح النفس التي اطلقنا عليها في العربية اسم الوازعة . ولعلها اهم القوى الادبية التي يتميز بها الانسان الراقي عن المتوحش .

فقدان الوازعة او ضعفها في الحكام المستبدين من اعظم البواعث على ظلم الرعية ، وهو آفة الامم المستبد بها . ولكنه لا يلبث ان ينقلب آفة على الاستبداد نفسه لما يحدثه الجور في الرعية من رد الفعل والمطالبة بحقوقها الطبيعية .

الوازعة القوية في المستبد القوي اعظم نصير للاستبداد والدّ عدو للدستور ، لأنها تحارب الدساتير بسلاتها وتنزع من المطالبين بحقوق الامم امضى سيف في يدهم الا وهو أقلمة قسطاس العدل في الرعية .
لو عمل المستبدون الاقوياء بأحكام الوازعة لكان كثير من الامم

الدستورية الحالية لا تزال حتى الساعة تحت سيطرة الاستبداد لعدم شعورها بضرورة الدستور ولعدم اضطرارها الى المطالبة بحقوقها الطبيعية .

الاستبداد العادل لا يلد دساتير

لا تطالب الامة بحق فلسفي لا تترتب على المطالبة به فوائد عملية . ولا نذكر ان امة ناصبت الاستبداد العداء لمجرد نيل حقوق نظرية .
الامة المتمتعة بحريتها الشخصية وحقوقها المدنية ومرافقها العمرانية لا تنثور على الاستبداد العادل لمجرد الحصول على الدستور .
فالامم انما تطالب بالدستور لأن الاستبداد الظالم أرقها^(١) والطغيان طحنها والاستعباد قيدها والجور افقرها . فالدستور ابن الاستبداد الظالم ، اما الاستبداد العادل فقلما يلد دساتير .

(١) ادى تعليق الدستور العثماني الذي وضعه مدحت باشا عام ١٨٧٦ الى تفرد السلطان عبد الحميد بالحكم ، حيث حل مجلس المبعوثان واقصى مدحت باشا الاب الروحي للدستور واتهمه بالخيانة العظمى ثم تمت تصفيته .
ادى الحكم الاستبدادي لعبد الحميد الى نقمة واسعة في صفوف دعاة الاصلاح فناصبوه العداء واضطروا للهجرة الى بلدان لا يطالها استبداده .

آفة الاستبداد

آفة الاستبداد الكبرى الضعف لا الظلم . فالاستبداد الظالم القوي أطول أجلاً وارسخ قدماً من الاستبداد العادل الضعيف .
الاستبداد الذي يحيا بموت الاقوياء ضعيف زائل ، اما الذي يحيا رغماً منهم فقوي ثابت .
متى فقد الاستبداد القوة فقد كل شيء . فلا العدل ولا البذل ولا اللين ولا الرحمة ولا شيء آخر يقوم مقام القوة .
قد تؤجل هذه العوامل موت الاستبداد الى اجل محدود ولكن مصيره بلا القوة الى الفناء المحتم .
القوة روح الاستبداد . والاستبداد بلا قوة كالجسم بلا روح .

الاستبداد المريض

نريد بالاستبداد المريض ، الاستبداد الذي اصاب جسمه علة .
وعلل الاستبداد كثيرة اشبه بالعلل التي تصيب الاجسام البشرية ، نكتفي منها هنا بالمرض الفسيولوجي الذي يصيب الاجسام الحية على السواء نباتية كانت ام حيوانية ، وهو الشيخوخة .
متى شاخ الاستبداد قُضي عليه بالموت كما يقضى على الكائنات الحية . ولكن يقوم غالباً على انقاضه استبداد آخر اقوى منه مراساً واصلب عوداً ، والحقيقة ان ما يشيخ انما هو الاسرة المستبدة ، تقوم عليها اسرة اخرى وتغتصب الاستبداد من يدها او تخلفها في الحكم .

الاستبداد لا يموت حتف انفه

الاستبداد لا يموت موتاً بل يُقتل قتلاً ولم يذكر التاريخ استبداداً مات حتف انفه الا نادراً . والامة التي تتوقع موت الاستبداد بمجرد

[نشر هذا المقال تحت باب « مباحث عمرانية » في « المجلة » ، الجزء الثاني عشر ، السنة الثانية ، بوانس آيرس في أول كانون الأول سنة ١٩١٦] ..

الشيخوخة وانتقال الحكم الى يدها على اسهل الطرق ، امة لا تفقه طبائع الاستبداد وليست اهلاً للدستور .

الاستبداد اشبه بذلك الطير الخرافي المسمى فنقس الذي أتينا على ذكره غير مرة ، وقلنا انه اذا أحرق عاد الى الحياة مبعوثاً من رماده . فاذا مات استبداد انبعث من رماده استبداد آخر قد يكون أشد فتكاً بالرعية من الاستبداد الذي تقدمه ، على ما مرّت الاشارة اليه .

لم يوجد في العالم استبداد مات حتف انفه وقامت على انقاضه سلطة الامة بمجرد الوراثة الا نادراً .

على الامة التي ترمي الى بسط سيادتها هي على نفسها ان تنال حقوقها الطبيعية بقوة ذراعها ، او تتناول دستورها بأطراف سيوفها . مهما كان الاستبداد ضعيفاً لا يرضخ لارادة الامة الا بالقوة ، ولا يهدم حصونه الا بالقوة ، ولا يسلم سلاحه الا بالقوة .

قد ينتحر الاستبداد على مذبح الوطن كما انتحر استبداد اليابان مثلاً ، ولكن هذه الامثلة نادرة جداً في التاريخ على ما المعنا اليه . ومهما يكن من الامر فان الاستبداد قد ينتحر او يقتل ولكنه لا يموت حتف انفه .

(قتل المستبد لا يعني قتل الاستبداد)

اذا فتكت امة من الأمم بحاكمها المستبد فذلك لا يعني انها فتكت بالاستبداد ، بل قد يكون قتل المستبد القومي نكبة وطنية لا توازيها نكبة قط .

لما اغمد بروتس وانصاره خناجرهم في قلب يوليوس قيصر وسط مجلس السناتو حسبوا انهم بقتلهم قيصر قتلوا الاستبداد ، ولكنهم كانوا على خطأ فاضح لأنهم فتكوا بأقوى وأعظم واعدل ملك كان يمكن رومية الحصول عليه ، وغادروا الملكية دون ان يمسوها بسوء . قتلوا المستبد الوحيد الذي كان يصلح للامبراطورية المطلقة وتركوا تلك الامبراطورية او الملكية سليمة .

افرخ من استبداد قيصر استبداد آخر هوى بأعظم وابذخ وامجد جمهورية على وجه البسيطة طراً من قنة النظام والفخر الى حضيض الفوضى والانحطاط .

قتلوا استبدادا واحدا لحيوا استبدادات شتى ، وفتكوا باستبداد
بأذخ منظّم لحيوا استبدادا حقيرا مشوشا .
قتلوا المستبد ولكنهم لم يفقهوا كيف يقتلون الاستبداد ، وقتلوا
استبداد الفرد لحيوا استبداد الجماعة .

استبداد الفرد واستبداد الجماعة

من اقوال نابليون الكبير الماثورة ان القائد العام المطلق السقيم الرأي
خير من قواد كثيرين بارعين يستقل كل منهم في خطته الحربية . وما
اطلقه ذلك النابغة الحربي على قواد الجيش يمكننا اطلاقه على قادة
الاستبداد .

استبداد الفرد المطلق خير من استبداد الجماعة ، مطلقاً كان ام
مقيداً .

استبداد الفرد شربسيط ، اما استبداد الجماعة فسر مركب .
استبداد الفرد يعرف ما يريد ويفعل ما يعرف ، اما استبداد الجماعة
فلا .

استبداد الفرد يعمل لغده وسلالته ، اما استبداد الجماعة فيعمل
ليومه ولنفسه .

ناموس القوى المتحركة والاستبداد

استبداد الفرد قوة متحركة تجري الى جهة واحدة ، اما استبداد
الجماعة فقوى متحركة تجري الى جهات مختلفة .

لا تبدد في قوة استبداد الفرد ولا تصادم في اجزائها خلافاً لاستبداد
الجماعة ، فان قواه تتصادم كما تتصادم القطر الحديدية فتفني
الواحدة منها الاخرى .

اذا فرضنا وجود أمتين متساويتين في كل شيء يحكم الواحدة منهما
مستبد فرد تعادل قوته مليون حصان مثلاً ويحكم الاخرى جماعة
مستبدة يعادل مجموع قواها مليون حصان ايضاً ، فلا ينتج من ذلك ان
نتيجة فعل قوة الفرد وقوة الجماعة واحدة في الامتين كلتيهما .

قوة الفرد المستبد تبقى دائماً تجاه مجموع الامة قوة مليون حصان ،
اما قوة الجماعة المستبدة فقد لا يبقى منها بعد تصادمها وافناء الواحدة

منها للآخرى ما يزيد على قوة الف حصان . لذلك كان استبداد الجماعات في كل زمان ومكان قصير الاجل بالنسبة الى استبداد الافراد .

استبداد الجماعة

استبداد الجماعة شر انواع الاستبداد على الاطلاق ، وهو على كل حال نكبة وطنية قد لا يكون لها مثيل في تاريخ الامة كله . فاستبداد الخوارج اثناء حصار القدس بلغ حداً لم يسمع مثله في التاريخ القديم حتى اضطرت النساء الى اكل اطفالهن . واستبداد الغوغاء في باريس اثناء الثورة الفرنسية شر استبداد رآه العالم واعظم نكبة نكبت بها الامة الفرنسية على الاطلاق .

استبداد الجماعة خال من كل قيد او شرط قد يفرضه على نفسه المستبد الفرد ، وعلة ذلك توزع العهدة او المسؤولية على جمهور المستبدين .

استبداد الجماعة أشبه بعاصفة تجرف امامها كل شيء بل اشبه بنار تلتهم كل ما حولها ، فاذا لم تجد ما تأكله اكلت نفسها .

استبداد الجماعة اشبه بجنون جزئي او مطبق يصيب الجماعة المستبدة ، فاذا ظهرت اولاً بمظهر الرجل الصحيح العقل لا تلبث ان تظهر بمظهر المنحرف العقل متى حدث ما يثير في دماغها نوبة الجنون . كذلك كانت حال الجماعة المستبدة في باريس ابان الثورة ، وخصوصاً في شهر سبتمبر او ايلول ، حتى اطلق عليها المؤرخون لقب السبتمبريون او الايلوليون .

استبداد الجماعة تجاه الخطر

متى تهدد استبداد الجماعة خطر عام ، سواء كان داخلياً ام خارجياً ، توحدت قواه المتفرقة وجرت في وجهة واحدة واصبح بمثابة استبداد الفرد القوي .

مهاجمة استبداد الجماعة في هذا الطور خطيرة جداً ، فهي بمثابة مهاجمة الاسد الجريح في عرينه .

استبداد الجماعة القوي تجاه خطر عام من اقوى ضروب الاستبداد ان لم يكن اقواها كلها .

يفعل الخطر العام في تناوب استبداد الجماعة ما تفعله حرب خارجية في ثورة اهلية .

استبداد الجماعة تجاه الخطر العام لا يفكر ولا يهادن ولا يحاذر بل يحاول ان يفتك بعدوه فتكاً ذريعاً .

استبداد الجماعة تجاه خطر خارجي

يفعل الخطر الخارجي غالباً في موقف الامة تجاه استبداد الجماعة عكس ما يفعله في موقفها تجاه استبداد الفرد .

الخطر الخارجي يدفع عادة خطر انتفاض الامة على استبداد الفرد ، واذا كانت منتقضة عليه دفعها الى الالتفاف حوله او تأجيل مناهضته الى حين . اما في استبداد الجماعة فالخطر الخارجي يدفع الامة غالباً إلى الانتفاض عليه ، وذلك لسببين : أولهما ان استبداد الجماعة اشد وطأة على الامة من استبداد الفرد . وثانيهما ان الامة تعترف بقوة الاستمرار لاستبداد الفرد بحقوق لا تعترف بها لاستبداد الجماعة . استبداد الفرد اصيل اما استبداد الجماعة فدخيل .

يقف استبداد الجماعة بازاء خطر خارجي بين سيفين : الواحد منهما يصوبه العدو الى صدره ، والآخر تسدده الامة الى ظهره .

الوسيلة الوحيدة لانقاذ الاستبداد نفسه أن يسحق العدو الخارجي او يغلبه بما امكنه من السرعة ، والا قتله العدو الداخلي .

استبداد الجماعة مدافعاً

متى كان استبداد الجماعة تجاه خطر خارجي مدافعاً ، كان موقفه تجاه الامة اقل خطراً عليه منه مهاجماً . لأن هذا الموقف نفسه يكسبه صفة المدافعة عن استقلال الامة .

إذا أحسن استبداد الجماعة الدفاع عن الوطن ولم ينجح بالجور على الامة ، ملك قلبها واستمالها لسيطرته .

استبداد الجماعة مدافعاً أخف وطأة على الامة منه مهاجماً ، لأنه يريد ان يحفظ خط الرجعة فيما لو تغلب على امره . خلافاً لاستبداد الجماعة مهاجماً الذي شعاره النصر او الموت على ما تقدم بيانه ^(١) .

متى وقف استبداد الجماعة موقف المدافع ، شعر انه واقف موقفاً عادلاً تجاه الامة وانه يذود عن حياضها . لذلك كان الخطر عليه في حال الهزيمة اقل كثيراً منه على الاستبداد المهاجم .

استبداد الجماعة مهاجماً

شعار استبداد الجماعة في هذا الموقف « النصر أو الموت » ، لذلك كان يحكم استبداد الجماعة ابان الثورة الفرنسية بالموت على كل قائد فشل في معركة . كان الفشل حينئذ جريمة كبرى يكفر عنها صاحبها بدمه ، سواء كان مخطئاً في اجراءاته الحربية ام مصيباً .

إذا كان استبداد الجماعة تجاه الخطر الخارجي في موقف المهاجم ، كان اشبه بقائد اغار على بلاد اجنبية عن طريق البحر فلما نزل الى البر احرق مراكبه ليقطع على نفسه خط الرجعة .

لا يهاجم استبداد الجماعة خطراً خارجياً الا لدفع خطر داخلي . فاذا اتفق ان لم يكن حينئذ خطر داخلي مباشر ، كان الغرض من المهاجمة ارساخ قدم الاستبداد في البلاد الى أجل طويل بما يلقى النصر من المهابة

[نشر هذا المقال تحت باب « مباحث عمرانية » في « المجلة » الجزء الرابع عشر ، السنة الثانية ، في أول كانون الثاني سنة ١٩١٧ .]

(١) راجع المقال السابق .

في قلب الامة .

اذا هاجم استبداد الجماعة خطراً خارجياً دون ان يكون واثقاً كل الوثوق بنيله الغلبة ، كان عمله عبارة عن مقاومة بحياته وحياته بلاده .
اذا هاجم استبداد الجماعة خطراً خارجياً دون ان يكون معتمدا في هذا الهجوم على قوته هو وموارده هو ، اصبح عرضة لاستبداد الغير به وامسى زمام امره في يد غيره .

استبداد الجماعة مهاجماً خطراً خارجياً اشد فتكاً بالامة منه في زمن السلم . فهو لا يحجم عن استنزاف موارد الأمة كلها ودمها في سبيل إحراز النصر ، لأنه يعرف ان الفشل يفضي به لا محالة الى الهلكة .
استبداد الجماعة مهاجماً استبداد قوي جداً أو يشعربنا بأنه قوي جداً . وهو في الحالتين كليهما استبداد مجازف بكل شيء .

موقف الامة تجاه استبداد الجماعة المهاجم موقف الانتظار ، فهي تخشى الانتفاض عليه ولكنها تتحين الفرص للفتك به .
استبداد الجماعة مهاجماً خطراً خارجياً استبداد فتاك ، فاذا انتقضت عليه الامة عرضت حياتها لأعظم النكبات . والعراك ، الذي يحدث حينئذٍ بينهما ، عراك دموي قصير الاجل ، بل هو اقصر اجلاً من سائر ضروب المصادمة طرا بين الامة والاستبداد على اطلاقه .

استبداد الجماعة مهاجماً خطراً خارجياً يقيم غالباً قسطاس العدل في الامة ، لأنه ليس من مصلحته أن يثيرها عليه . فهو يقبض على شؤون الامن العام بيد من حديد لأن اختلال الأمن حينئذٍ يشوش موقفه تجاه الخطر الخارجي ، ويضطره الى تحويل بعض قوته من ساحات العراك لكبح جماح المعتدين . فهو لا يعتدي على حقوق الجماعات الا بما هو ضروري لاحراز النصر ودفع الثورة . اما في سائر شؤون الحياة الاخرى فهو اعدل ضروب الاستبداد .

استبداد الجماعة والارهاب

استبداد الجماعة لا يميل في زمن السلم الى الارهاب كاستبداد الفرد ، ولكنه متى كان تجاه خطر خارجي عمد الى اقصى درجات الارهاب . ونريد بالارهاب الحكم بالموت لا مجرد اعلان الاحكام العرفية .

يفتك استبداد الجماعة في مثل هذه الحال بفريقين من الامة : اولهما فريق حملة الاقلام ، وثانيهما فريق اصحاب النفوذ . ولكنه لا يفتك مطلقاً بأحد هذين الفريقين لمجرد الفتك وسفك الدماء ، لأن ذلك مخالف لمصلحته كل المخالفة .

إذا قبض استبداد الجماعة على كاتب أو صاحب كلمة نافذة فيها ادلة البراءة والجرم من وجهة الاستبداد ، فالاستبداد يميل الى ادلة الجرم والحكم على المتهم بالموت ، لأن في بقاء المتهم حياً اذا كان مجرماً خطراً على استبداد الجماعة ، خلافاً لما اذا حكم عليه بالموت وهو بريء . وقد يحكم استبداد الجماعة في مثل هذه الحال بالموت لأسباب تافهة ، وغرضه من ذلك الارهاب .

إذا رأى استبداد الجماعة اثناء مهاجمته خطراً خارجياً أن الارهاب اتي بالغرض المطلوب ، لم يتجاوزه الى سفك الدماء الا اذا كان من الغوغاء . اما اذا رأى أن الامة لم تعتبر بهذه العبرة ، ضاعف ارهابه ولم يقف عند حدٍ ولو افضى به الى المجازر ، حتى يجد نفسه في مأمن من الدسائس .

الاستبداد وأجل الارهاب

الارهاب الصارم القصير الاجل في بداءة الوقوف تجاه خطر خارجي ، اضمن لسلامة الجماعة من الارهاب الصارم الطويل الاجل بعد حين . الارهاب الصارم القصير الاجل يدفع الخطر الذي يتهدد استبداد الجماعة في مثل غمض الجفن ، ويصرف الامة عن التفكير في القيام بالثورة . ففعله في الشعب اشبه بفعل السحر . اذا كان في الامة حركة ثورية منظمة ، فالارهاب لا يدفعها بل يعجلها .

إذا طال زمن الارهاب ، كان ذلك بمثابة انذار لاستبداد الجماعة بأن خلل الرماد وميض نار . طول عهد الارهاب يُعد دائماً وابتداءً أشد الاعراض خطراً على استبداد الجماعة .

إخلاء الامة الى السكينة بعد ارهاب صارم قصير الاجل ، دليل قاطع على انه لا توجد حركة ثورية منظمة ضد استبداد الجماعة . اذا طال عهد الارهاب حتى انتهاء العراك بين استبداد الجماعة

والخطر الخارجي ، كان دليلا على ان الاستبداد مقضي عليه مهما كانت نتيجة ذلك العراك .

الارهاب الصارم الطويل الاجل دليل على وجود حركة ثورية غير ناضجة ، وعلى ان الامة ناقمة من استبداد الجماعة كل النقمة .

اذا لم يضطر استبداد الجماعة ، اثناء وقوفه تجاه خطر خارجي ، الى استعمال الارهاب على الاطلاق ، كان ذلك دليلا على واحد من امرين : اولهما انه استبداد عادل ، وثانيهما ان الامة مستميتة .

اضطرار الاستبداد الى استعمال الارهاب ، دليل قاطع على ان في الامة جرثومة الحياة الدستورية .

الارهاب على كل حال دليل على ان الاستبداد في خطر شديد ، وهو سيف ذو حدين قد يجرح الضارب كما يجرح المضروب .

الارهاب الطويل الاجل

كلما طال اجل الارهاب ازداد الخطر على الاستبداد . فالخطر دائما وابدأ بالنسبة الى طول زمن الارهاب .

الارهاب الطويل الاجل يفعل عكس الارهاب الصارم القصير الاجل ، لأنه يُحدث في الامة رد فعل ، فيستخف الشعب بالمخاطر وينقم من الاستبداد ويحاول انتزاع السلطة من يده بكل وسيلة ممكنة سواء كانت مشروعة ام غير مشروعة .

كان طول عهد الارهاب ايام استبداد جماعة روبسبير وانصاره اثناء الثورة الافرنسية من اعظم البواعث على تقلص ظله . فان العربات التي كانت تحمل صباح كل يوم ضحايا المقصلة او الغليوتين الى ساحة الموت صُلِّبت عواطف المحكوم عليهم وحجرت نفوسهم ، ولكنها اوغرت قلوب الباريسيين حنقا وحقدًا . ومع أن جل الذين كانوا يقادون الى المقصلة من طبقة الشرفاء والاغنياء والامراء الذين قام عليهم الشعب ، فان طول عهد الارهاب ملأ قلب ذلك الشعب حنقا على رؤسائه والمستبدين به .

ارهاب الاستبداد وخنوع الأمة

خنوع الامة تجاه ارهاب الاستبداد على اطلاقه عرض خطر جدا ، وهو دليل على واحد من امرين : اولهما بطش الاستبداد ، وثانيهما

استماتة الأمة . فاذا كان الاول منهما ، كان للأمة شيء من العذر . اما اذا كان الثاني ، فهو دليل على ان الحياة القومية في الأمة تكاد تكون مفقودة .

الخنوع على كل حال نذير شؤم للأمة ، فهو اشبه بالسبات الذي يصيب المرض . واذا لم تنتبه الامة منه قبل ان يستولي على شعورها كله ، افضى بها الامر الى عواقب وخيمة .

قد يكون الخنوع احياناً عرضاً من اعراض الذهول الذي يصيب الامم اثناء الارهاب الفجائي ، كما حدث في الثورة الفرنسية ايام كان الارهاب في ابّان شدته . فقد لبث الفرنسيون في ذلك العهد المظلم ، الذي قلما رأى له التاريخ نظيراً ، في حال اشبه بالذهول . ومما يدعو الى العجب والانذهال ان الامة وقفت امام تلك الكارثة دون ان تتخذ شيئاً من الاجراءات التي تقيها شر الاستبداد .

الرفقاء الشدة	
---------------	--

ايتها السيدات وايها السادة

رأت الجامعة السورية^(١) ان تبدأ اعمالها في فجر حياتها بإحياء ليلة تلقى فيها محاضرة في موضوع حيوي من المواضيع العمرانية التي هي في صدر غاياتها ومراميها . وقد انتدبتني لأقوم الليلة بهذا الواجب الوطني ، فأسدي اليها الشكر لحسن ظنها بي وما اولتني من الشرف الكبير . والجامعة ترجو ان تحيي مثل هذه الحفلة كلما وجدت الى ذلك سبيلا .

ارتقاء الامم من اهم المباحث العمرانية بل اهمها كلها ، لأنه يتناول الامم بجمليتها مع فروع عمرانها . فهو عبارة عن تاريخ تطور الجنس البشري من مهد البداوة حتى الطور الحالي من عهد الحضارة والعمران . ولقد اتخذت ارتقاء الشرق موضوعاً لهذه المحاضرة لاستخراج بعض النواميس التي تتطور بموجبها الامم تطوراً يرفعها من حال الى حال حتى يبلغ بها درجة الكمال ، ولنجري نحن ايضاً طبقة لهذه الشرائع العمرانية التي لا بد لكل امة تطمح الى الارتقاء من معرفتها . ولما كان لهذا الموضوع

(١) ذكر الدكتور سعاده في مقال بعنوان « الجامعة السورية في عاصمة الجمهورية الفضية » انه كان في صدر امانيه الاجتماعية يوم قدومه الى عاصمة الارجننتين « الاقدام على انشاء » المجلة « وتأسيس جمعية سورية شاملة تعنى بالتأليف بين عناصر الجالية ، والشؤون الادبية والاجتماعية للمواطنين ، والمحاماة عن مصالح الجالية ، وتكون نواة للسوريين القاطنين الجمهورية الفضية عموماً وبوانس ايرس خصوصاً » .

وكان يبلغ عدد الجالية السورية في ذلك الوقت حوالي مئة وعشرين الف شخص ، ولم يكن هناك اية مؤسسة تجمع بين ابناء الجالية . لذلك دعى الدكتور سعاده الى انشاء « الجامعة السورية » ، وقد تجاوب ابناء الجالية مع دعوته والقي هذه المحاضرة التي احيיתה « الجامعة السورية » في صالون سويسرا في العاصمة الارجننتينية وذلك في الخامس عشر من كانون الاول سنة ١٩١٦ ، ونشرت في عدد خاص من « المجلة » صدر في نفس اليوم .

مساس بحالتنا العمرانية الحالية وما نطمح اليه في الاستقبال ، ارجو ان يكون بحثنا هذه الليلة مفيداً لنا من الوجهة النظرية والعملية معاً .
ابندىء بتقرير حقيقة عامة وهي ان فجر ارتقاء كل امة من الوجهة العمرانية كان منذ تركت بداوتها ومالت الى الحضارة ، اي منذ اليوم الذي تحولت فيه عن ان تكون قبيلة رحالة واستوطنت بقعة اتخذتها وطناً لها . ومهما يكن من امر الاكتشافات العلمية الحديثة بخصوص البقعة التي ظهر فيها الانسان الاول ، فالآثار التاريخية تدل جلياً على ان فجر الارتقاء لاح في الشرق وان عهد العمران فيه يعود الى قرون متطاولة في القدم يقف عندها العقل حائراً ذاهلاً .

الشرق معرض الطبيعة الفخم لارتقاء الجنس البشري في العصور الخوالي . وكلما بحث فيه المنقبون عثروا على آثار ضخمة عمرانية تحير العقول . فهو اوقيانوس لا ينضب وكنز لا يفنى واثر خالد لعمران العالم في الدهور الغابرات .

في ثنايا الشرق مجد الجنس البشري في التاريخ القديم ، وفي غضون تواريخه العجيبة شرف اثيل ، وفي تضاعيف تطوراته الغريبة عزبازخ . الشرق اضخم كتاب سطرت فيه الطبيعة اسرار الارتقاء ، ولكنها سطرته بأحرف هيرغليفية ورموز غامضة شأنها في سائر كتبها الاخرى .
في آثار فينيقية الدارسة وسوريا القديمة ، وفي خرائب بابل وآشور ، وتحت اطلال مصر ، وبين انقاض فارس ، وفي كبد الهند وقلب الصين ، دفن الشرق امجاد عصوره الراقيات واسرار علومه المحجبات حتى اصبح برمته اشبه بنصب فخم لا مثيل له في الارض اقامته الطبيعة حارساً على مدافن ارتقائه .

وماذا اقول عن العرب ، تلك الامة العجيبة ولغتها الاعجب ، اللتين كانتا ولا تزالان لغزاً من الغاز الطبيعة . تلك الامة التي يغيب فجرها في ثنايا دهور الجاهلية ، وتلك اللغة البديعة التي اعجزت اعظم فلاسفة اللغات عن ادراك اسرارها المحجبة وألغازها الغامضة . تلك اللغة وافعالها الثلاثية المطردة وتصاريقها المنتظمة التي لا مثيل لها في لغة من لغات العالم على الاطلاق ، بل الحقيقة ان العربية بقواعدها الصرفية والنحوية ضرب من الفلسفة او المنطق . واني اقول ولا اخشى تخطئة أن اللغة العربية أبدع لغات العالم طراً وانها من اقدم فروع اللغة السامية

ان لم تكن اقدمها كلها على الاطلاق .

كان الرأي الشائع حتى فجر القرن العشرين ان مهد الجنس البشري ما بين النهرين ، ولكن فريقاً من جلة الباحثين يذهب الآن الى انه بلاد العرب وان العربية من اقدم اللغات . واذا كانت اللغات مرآة الامم ومقياس ارتقائها الفكري ، فالعرب من اسبق الامم الى الارتقاء .

ماذا اقول عن العرب ، تلك الامة الطليقة في الصحراء كالعصفور في الفضاء التي شعارها البسالة والشهامة . امة كُرِّت عليها الدهور وتعاقت العصور وهي لا تزال الآن في عهد الطفولة كأنها بنت أمس ! امة لا تعرف الشيخوخة ولا تريد ان تعرفها . امة نقشت اسمها على صفيحة التاريخ الخالدة بأحرف بارزة بجانب رومية واليونان . ظهرت في التاريخ كالزوبعة وهبّت كالعاصفة وانقضت كالصاعقة فأتت اقل من قرن ما أنتمت رومية ملكة العالم في قرون . بسطت ظل مجدها في مثل غمض الجفن على ثلاث قارات من الكرة الارضية ، فكانت اشبه بنسر مثلث الاجنحة حلّق في طبقات الجو وبسط اجنحته فوق آسيا وافريقيا واوروبا .

ماذا اقول عن تلك النهضة العربية العلمية ، وخصوصاً على عهد الدولة العباسية ، ذلك العهد الباهر الذي تألّق في بغداد تألّق الشمس في كبد السماء . ذلك العهد الزاهر الذي ملأ العالم نوراً مجتازاً الصحاري والفيافي قاطعاً البيد والقفار عابراً السهول والودية والهضاب والجبال جاريّاً فوق متن الامواج حتى بلغ أوربا وأضاء اسبانيا ، حيث ابتدأ ذلك العهد الاندلسي الخالد الذي تألّقت انواره في جو الاندلس تألّق الشهاب الثاقب ، وشاد العرب في تلك الاصقاع تمدناً باذخاً لا تزال آثاره الشامخة حتى الساعة .

وهل يجوز لنا ان ننسى نفوسنا ؟ أنغفل مجد السوريين الاقدمين ، مجد اجدادنا الاولين ومجد الفينيقيين الخالدين ؟ ماذا اقول عن مجد فينيقية عموماً وصور وصيدا خصوصاً ؟ ماذا اقول عن عزّ الفينيقيين الباذخ الذين كانوا اول من سلك البحار ، راكبين متون امواجها بمراكبهم الشراعية حتى بلغوا بها اقصى المعمور ، لا يهديهم في هذه الاسفار سوى نجم القطب الذي سماه اليونانيون النجم الفينيقي ، ذاهبين في جهات البحر المتوسط كل مذهب حتى أطلقت عليه المؤرخون

اسم البحر الفينيقي ، حاملين تجارتهم الى انحاء العالم كلها وعائدين الى بلادهم بكنوز الأمم التي لم يطاء أرضها قبلهم بشر ، مؤسسين مهاجر فخمة على الشطر الغربي من سواحل البحر المتوسط وشواطئ الاوقيانوس الاطلانتیکی على جانبي بوغاز جبل طارق ؟ ماذا أقول عن اختراعاتهم الصناعية واكتشافاتهم الجغرافية ، حتى ان احد الفراعنة عهد اليهم بحملة اكتشافية حول افريقيا أتموها طبق المرغوب ؟

لا انسى ، ولن انسى ، الدهشة التي تولتني يوم وقفت امام خرائب بعليك الشهيرة الجامعة بين الضخامة الهائلة والدقة المتناهية والحدق الفني الذي يعجز أمهر صنّاع القرن العشرين . وقفت امام تلك الآثار الفخمة خاشعاً وقوف عابد في هيكل مقدّس . تمثلت أمامي في تلك الآثار الشامخة ليس فقط امجاد سوريا القديمة بل امجاد الشرق كله . من يقف امام تلك القلعة البديعة ولا يرفع قبعة لقدماء الشرقيين ؟ من يقف أمام تلك الأعمدة المتناهية في الجمال ولا يطاء رأسه إجلالاً لقدماء الشرقيين ؟ من يقف على اسرار هيكل الشمس ولا يخرفه ساجداً لذلك الارتقاء العقلي السامي الذي لم يزدّه تقادم الأيام الا مجدداً وفخراً ؟ آثار بعليك اجمل الآثار التاريخية على وجه الارض طراً .

جالية من جوالينا تعد على الاصابع هاجرت من صور وحلّت في قرطاجنة فانشأت جمهورية فخمة زاهرة اصبحت بعد قليل من الزمن سيدة البحار وملكة الامصار ، وشادت لنفسها مجدداً شامخاً وشرفاً باذخاً ناطح مجد رومية نفسها يوم نبغ هنيبال الكبير ند الاسكندر وقيصروكاد ينتزع من يد رومية صولجان العالم .

نقشت قرطاجنة اسمها على صفيحة التاريخ وانشأت لنفسها تمدناً مستقلاً ، وكانت حياتها عبارة عن نزاع دائم بينها ورومية . وكان حلولها في شمال قارة افريقيا باعثاً على ظهور حياة عمرانية قلما رأت لها تلك الارزاء نظيراً .

حمل السوريون تمدنهم الى الانحاء التي كانوا يسافرون اليها لغرض الاتجار ، والاصقاع التي هاجروا اليها لانشاء المهاجر . ولما كانت البراعة في سلك البحار فناً مميزاً لهم كانت وسائل الانتقال اسهل لهم منها لغيرهم . وعليه فان لقدماء السوريين تأثيراً كبيراً في ارتقاء الشرق ،

لا اظن التاريخ كان لهم فيه من المنصفين ، وخصوصاً لأن المهاجر التي انشأوها على الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط او الفينيقي بلغت حدّاً سامياً من الارتقاء . ومما زاد ذلك الارتقاء سموّاً اندغام التمدن اليوناني بالتمدن السوري في المهاجر المشار اليها . ولكن مؤرخي الغرب صوروا التمدن اليوناني بألوان اشد وضوحاً وازهى لوناً من التمدن السوري . كانت سوريا في التاريخ القديم طريق الامم في اسفارها وغزواتها . ففي سهولها التقت الجحافل المصرية والبابلية ، وفي بطاحها تلاحمت الفيالق المقدونية والفينيقية . وكانت وقفة صور امام الاسكندر اشد وقفة لقيها ذلك الفاتح العظيم في طريقه الى الشرقيين الاوسط والاقصى . وعلى الاجمال يمكننا القول ان سوريا كانت الساحة الكبرى لمعارك الشرق الادنى في التاريخ القديم . ومهما يكن من المضار التي عادت على سوريا بسبب ذلك ، فان احتكاك الامم بها وببعضها البعض كان باعثاً على نشر تمدنها واكتسابها شيئاً من تمدن الغير ، فضلاً عما في اختلاط الدم من بواعث الارتقاء .

درس الدهر تمدننا كما درس تمدن رصفائنا واخواننا من الشعوب الشرقية الاخرى ، ففقت آثارنا وآثارهم ولم يبق من ذلك البناء الفخم الا انقاض بالية ورسوم دارسة .

كانت النهضة الاندلسية آخر نهضات الشرق الكبرى ، فخيم عليه بعدها ظلام دامس يكاد يُلْمَس بالانامل . واصاب امه خمول غريب اشبه بسببات الموت فانطفأت انواره وتحجبت اسراره ، واخذ يرجع القهقري حتى طوره الحالي من الجمود .

ايتها السيدات وايها السادة

ان تقهقر الشرق نكبة كبرى لا مثيل لها في تاريخ الدهور ، بل هي اعظم نكبة اصابت الجنس البشري منذ نشأته حتى الآن .

تقهقر الشرق ظاهرة غريبة من ظواهر العمران . اغرب ما فيها اننا نحن الشرقيين لا نرى شيئاً غريباً فيها !

تقهقر الشرق ليس طوراً فسيولوجياً ناشئاً عن شيخوخة الأمم ، بل عرضاً باثولوجياً ناشئاً عن مرض خطر جداً . والطبيب الاجتماعي الذي يشخص داء الشرق تشخيصاً صائباً ويصف له العلاج الناجع ، لمن اعظم المحسنين الى الجنس البشري ... بل هو بمثابة نبي عمراني

عظيم .

جمود الشرق اعجوبة من عجائب الطبيعة لا مثيل لها في عالم الحياة الا الحيوانات الرخوة التي لبثت اطواراً جيولوجية على حال واحدة من التطور ، ولا تزال كذلك حتى الساعة .

تغيرت اوديته وهضابه وسهوله وجباله وتحولت مجاري انهاره وبرزت فيه جزر وغارت أخرى وتغيرت نباتاته وحيواناته ، اما اهله فقد ظلوا على وجه الاجمال بعد ذلك الارتقاء الباهر على حال واحدة من الجمود لا يتحولون عنها يمنة ولا يسرة .

الشرق بجموده الحالي اشبه بعالم مسحور تروح وتجيء فيه اشباح خاملة لا ارواح عاملة . من الصين حيث البلاد مكتظة بالبشر حتى سيبيريا حيث تسافر مئات من الاميال دون ان ترى بشراً ، ومن الهند حتى افغانستان وبلوخستان والعجم ، ومن جبال قوقاس حتى جبال حملايا والمحيط الهندي ترى هذه البلدان كلها كأنها مسحورة او كأن قد حلت عليها لعنة ابدية لا تحول ولا تزول .

قوى الشرق العقلية والعضلية والطبيعية ذاهبة فيه ضياعاً . ادمغة رجاله ونسائه في جمود اشبه بجمود الجمار . قواهم العضلية تصرف في شؤون الحياة البسيطة . انهار الشرق تجري الى البحار دون ان يستفيد منها شيئاً . كنوزه مدفونة في جوفه . تربته لا يُستعمل منها الا القليل ، والمحارث التي تُستعمل لحرث هذا القليل من عهد نوح . لا سكك حديدية تصل بين مدنه وقراه حتى ولا طرق عربات ، وما يوجد فيه منها لا يستحق الذكر . صناعاته لا تزال كما كانت على عهد تاريخه القديم بل أخط من ذلك بكثير . لا مصانع فيه ولا معامل . لا مدارس جامعة وطنية ولا كليات ، والمدارس البسيطة التي توجد في بعض انحاء لا تزال على ما كانت عليه في غابر الدهور . طرق التعليم فيه عقيمة عقماً فاحشاً ، والتلاميذ الذين يخرجون منها اشبه بالبيغاء منهم بالمتعلمين . اما البقية ، وهي الاكثرية الساحقة في امم الشرق ، فكالحيوانات السائمة تأكل وتشرب وبنام دون ان تفقه معنى الحياة . تتطلع صباحاً الى الشمس المشرقة وليلاً الى الكواكب الطالعة في السماء كما كان يتطلع اليها انسان الغاب في العصور الجيولوجية ، ترى البروق فتظن انها ارواحاً لامعة وتسمع الرعود فتخالها اصوات الجن . عندها الصواعق

والعواصف والزلازل ضربات سماوية . مدن الشرق خالية من الوسائل الصحية . لا تفارق الاوبئة الشرق ، واظن ان عدد قتلاها وقتلى الامراض الاخرى الناشئة عن الاهمال تربى في العالم الواحد على قتلى هذه الحرب للدول المتحاربة كلها .

فكروا في هذا ايها السادة تجدوا ان ما قلته من ان جمود الشرق اعظم نكبة اصابت الجنس البشري قول لا شيء فيه من المبالغة او الغلو على الاطلاق ، بل الحقيقة ان المفكر يصاب بذهول تام متى حاول ان يفسر هذه النكبة بالارقام ... ولكن اي رياضي يقدر على ذلك ؟ من يقدر ان يحصي الوف الملايين من الاطفال والنساء والرجال الذين ذهبوا في الشرق ضحية الاهمال ؟ من يقدر ان يحصي ملايين الملايين من الجنيئات التي ذهبت ضياعاً بسبب اهمال زراعته ؟ من يقدر أن يحصي ملايين الملايين من الجنيئات التي ذهبت ضياعاً بسبب عدم استعمال قواه الطبيعية في الشؤون الاقتصادية ؟ من يقدر ان يحصي الخسائر العقلية التي اصابته الشرق والعالم اجمع بسبب عدم استعمال الشرقيين ادمغتهم في سبيل ترقية الجنس البشري ؟ اتظنون ان لا ادمغة كبيرة في الشرق ؟ اتظنون ان البلدان التي انجبت بوذا وكنفوشيوس قد اصابها عقم ابدي ؟ اتظنون ان البلدان التي ظهر فيها موسى والمسيح ومحمد لا تنجب انبياء عمرانيين ؟ ان الشرق لغني في كل شيء ، وهو غني بعقول ابنائه كما بتربة ارضه ومعادن طبقاته ، ولكن عقول رجاله ذاهبة الآن ضياعاً كما تضيع مياه انهاره في البحار .

فكروا ايها السادة في الخسائر الهائلة التي اصابته العالم في الانفس والاموال والموارد الاقتصادية بسبب تقهقر الشرق ، تحكموا ان حرب الامم الحالية الطاحنة التي اجمع العالم بأسره على القول انها اعظم نكبة اصابته الجنس البشري ليست على احوالها الرائعة وبلاياها الفظيعة وخسائرها الهائلة شيئاً مذكوراً بالنسبة الى ما خسره الجنس البشري بسبب جمود الشرق !

ترون مما تقدم ان بقاء الشرق على ما هو عليه من الجمود ليس فقط نكبة عامة على الجنس البشري ، بل جريمة تربى اضعافاً على جريمة هذه الحرب . اقول جريمة لأن حال الشرق ليست ناشئة عن الشيخوخة كما يزعم جمهور الباحثين من الغربيين ، ولا هي شر لا طاقة للشرق

باتقائه ... بل هي اشبه بمن يميت نفسه جوعاً والطعام امامه او بمن يقتل نفسه عطشاً والماء يجري بجانبه . هي جريمة اشبه بجريمة الانتحار !

لم أر في كل ما طالعت من آراء العلماء والباحثين في تفهقر الشرق رأياً مقنعاً يعلل عن هذا التفهقر العجيب ، ولا رأياً شاملاً يمكن اطلاقه على الشرق بحذافيره .

يذهب فريق من جلة الباحثين الى ان الشرق بلغ درجة الشيخوخة ، على ما المعت اليه ، وان لا امل له بالنهوض . ولكنني لا ارى هذا الرأي لأن أممه التي شاخت أنقرضت ومن بقي منها حياً دل بقاؤه على حيوية قوية جداً . واستيقاظ اليابان التي هي من اقدم امم الشرق برهان يدحض مزاعم العلماء القائلين بشيخوخة الشرق .

وهناك فريق آخر يذهب الى ان جمود الشرق ناشئ عن مجرد الجهل ، وان لا بد في ارتقائه من تعميم العلم . وهو قول صحيح على اطلاقه ، ولكن بعض انحاء آسيا اكثر تنوراً من بعض انحاء أوربا ، وهو رغماً من تنوره لا يزال جامداً .

لا تظنوا ايها السادة ان جمهور امم الغرب نال نصيباً وافياً من العلم . وقد يدفع الجهل بعضه الى ارتكاب فظائع لم تأت العصور الغابرة بأنكر منها . فمنذ بضع عشرة سنة احرق الايرلنديون امرأة لأنهم حسبوها ساحرة ، احرقوها جهارا وهم يظنون انهم قاموا بواجب مقدس . وحدث في اثناء هذه الحرب في السرب ان جندياً خسر احدى عينيه فوضع له الطبيب عيناً اصطناعية ، ولكن الجندي لم يلبث ان عاد الى الطبيب شاكياً انه لا يُبصر بعينه الاصطناعية !

لا ريب في ان هذه الحوادث نادرة ، ولكنها تدل على مبلغ الجهل المتفشى في بعض طبقات الشعوب الاوربية . ومهما يكن من الامر فانك اذا اخذت بلدين متساويتين في العلوم والمعارف ، الواحدة منهما شرقية والاخرى غربية ، وجدت الثانية ارقى عمراناً من الاولى .

بقي مذهب ثالث في علة تفهقر الشرق ، قد يكون ادنى هذه المذاهب الى الصواب ، وهو ان جمود الشرق ناشئ عن تعصبه الديني . وهو قول وجيه قد يكون اقرب الاقوال كلها الى الحقيقة . فالتعصب في الشرق علة نصيب كبير من شقائه وانحطاطه ، وهو بلا مشاحة لعنة الشرق العظمى

وآفته الكبرى . ولقد عقدت على هذا الموضوع الخطير في جزء من اجزاء السنة الاولى للمجلة مقالة ضافية^(٢) ذهبت فيها مذهباً جديداً بشأن التعصب الديني ، خلاصته ان التعصب فينا ضرب من الجنون الوراثي وانه مرض دماغي لا شيء من المبالغة او المجاز فيه وان العلم لا يكفي وحده شفاء .

بيد انني بالرغم من كل ذلك ، لا أرى التعصب الديني وحده كافياً للتعليل عن تقهقر الشرق كله ، لأنه وجدت ازمان كان فيها بعض انحاء الشرق متعصباً دون ان يفضي به التعصب الى التقهقر . بل كان التعصب احياناً باعثاً على نهوضه الى اجل محدود . ومع ان تعصب الغرب ليس شيئاً مذكوراً بالنسبة الى تعصب الشرق ، فهو لم يفض به الى الجمود . وهناك فريق رابع يقول بان تقهقر الشرق يعود الى شقاق اهله وعدم اتفاق كلمتهم . اما التفرق في الشرق فعلة قديمة كانت ولا تزال في صدر العوامل الباعثة على تقهقره . فالشرقي نابغة في التفريق والخصومات ، وهو يهدم في ساعة ما يبنيه غيره في سنة . الشرقي يخرب بيته كله ليخرب زاوية من بيت جاره . الشرقي يكذب ذهنه ليتمحل عذراً في ايجاد النفار بينه وبين اصدقائه . يبحث كيف يجد وسيلة لالقاء الخصومات بينه وبينهم . اما ما يختص باحباط المشروعات العامة فحدث عن الشرقي ولا حرج . يصرف نهاره عاملاً على احباط المشروع ويقضي ليله مفكراً في احباط المشروع . قد تسألونني لماذا يحاول الشرقي ذلك ؟ اذا كان يمكنكم معرفة مسالك الاسماك في البحار او طرق الطيور في الجو ، يمكنكم ان تعرفوا لماذا يحاول الشرقي احباط المشروعات العامة . اذا لم يتمكن من نيل بغيته شعر انه اشقى خلق الله ، واذا ظفر بأمنيته شعر بارتياح عظيم وسعادة اعظم كأنه قام لوطنه بخدمة لا تقدر ، فينام ملء جفونه . ومتى لقيك في اليوم التالي ابتدرك بقوله « اما قلت لك ان المشروع مقضي عليه بالفشل ؟ » وبعد ان يبذل قصارى جهده للاضرار بوطنه ومواطنيه والقاء النفار والشقاق بينهم ، يجلس نادباً حال الشرق وتفرق كلمة اهله !

لا يقتصر هذا الشر على الافراد بل يتناول ايضاً الجمعيات ، فترى الواحدة منها مناوئة للآخرى . وقد يكون غرض جمعيتين واحداً ولكن

(٢) راجع مقال « التعصب الديني في الشرق والشرقيين داؤنا العضال » .

يكفي ان يكون اسمهما مختلفا ليقوم الخلاف بينهما . وعوضاً عن ان تكون كل جمعية جديدة قوة جديدة في الشرق تتضافر وخصائصها لما فيه خير الوطن والمواطنين ، تراها هدفاً لسهام الجمعيات الاخرى ، او تقوم هي بمناوأة القديمة ، كأن تعدد القوى في سبيل الاغراض العامة جريمة لا تغتفر .

اجل : ان الاتفاق في الشرق يكاد يكون معدوماً ، وتتضافر القوى لغرض عام نادر جداً ، وذلك بلا مشاحة من اسباب تقهقره . ولكنني لا ارى فيه تعليلاً كافياً على الاطلاق لجمود الشرق وخصوصاً لأن التفرق معروف في الغرب ، ولئن لم يبلغ الحد الفاحش الذي بلغه في الشرق . هذه ايها السادة الاسباب الكبرى التي اجمع كتاب الشرق والغرب على كونها العقبات الواقفة في سبيل ارتقاء الشرق . وهناك اسباب اخرى اتى على ذكرها بعض الكتاب ، اضربت عن ذكرها لأنها لا تصلح على الاطلاق لتكون مداراً للبحث في موضوع خطير جداً كالموضوع الذي نحن بصدده .

ايتها السيدات وايها السادة

اريد ان ابسط لديكم الآن رأيي الخاص في تقهقر الشرق . فقد تقدم لي القول ان الاسباب التي اتيت على بيانها لا تكفي منفردة او مجتمعة للتعليل عن ذلك . وعندي انها كلها اشبه بالاعراض المرضية لعللة خبيثة . فكما ان السعال والهزال والحمى ليست اسباباً للسيل الرئوي بل اعراضاً له ، كذلك اعتقد ان الجهل والتعصب والشقاق اعراض لتقهقر الشرق لا سببه الاصيلي . وكما ان توقف اعراض السيل ردحاً من الزمن يفيد العلة بلا مشاحة فائدة كبرى دون ان يشفي صاحبها ، كذلك هجوع الجهل والتعصب والشقاق يعود الى الشرق بفوائد لا تقدر ولكنه لا يشفيه من دائه .

متى رأيتم قارة من قارات العالم مصابة بجمود ثابت مدى قرون متطاولة من الدهر ، فاعلموا انها قد ارتكبت ذنباً ضد الطبيعة . متى رأيتم قارة كبيرة رازحة من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب رزوح جبّار هائل تحت مقارع سجان هائل ، فاعلموا انها قد ارتكبت جريمة مميتة ضد نواميس الطبيعة وان الطبيعة تعاقبها عقاباً صارماً دون شفقة ولا رحمة .

كونوا على ثقة ايها السادة من ان الطبيعة اعدل قضاة الكون ، فهي لا تحابي ولا تظلم ولكنها لا ترحم . والعقاب الذي تعاقب به الامم المذنبة يكون دائماً بالنسبة الى الذنب الذي ترتكبه وما يترتب عليه من النتائج . كل امة او قارة تعصي نواميس الطبيعة تموت موتاً . وكل الامم المنقرضة سواء في الشرق ام الغرب انما انقرضت لأنها عصت تلك النواميس .

شرائع الطبيعة عادلة ، سواء وافقت عدلنا ام لم توافقه ، لأنها المرجع الاسمي للكون . ومتى تعارض عدل الطبيعة وعدل البشر فاصطدما ، كان الغالب الأول منهما لا محالة . وكما يحكم عدل البشر بالموت على من يرتكب اعظم الجرائم البشرية ، كذلك يحكم عدل الطبيعة بالموت على الامة التي ترتكب اعظم الجرائم الطبيعية .

من يدخل النار المضطربة ولا يحترق ؟ من يرمي بنفسه الى النهر الطاغى ولا يغرق ؟ من يقف في طريق ريح السموم ولا يختنق ؟ من تنقض عليه الصاعقة ولا يهلك ؟ كذلك تموت الأمم التي تعصى الطبيعة . ما هي الجريمة الكبرى التي اذا ارتكبتها امة او مملكة او قارة حكمت عليها الطبيعة بالموت ؟ ما هي الجريمة الكبرى التي ارتكبتها الشرق ؟ الجريمة الكبرى التي اذا ارتكبتها امة او امم حكمت عليها الطبيعة بالموت هي عدم تطبيق تلك الامة او الامم نفسها على بيئتها او محيطها . كل نبات او حيوان لا يطبق نفسه على البيئة التي هو فيها موتاً يموت ، وكل امة او امم او قارة لا تطبق نفسها على محيطها هلاكاً تهلك .

السؤال الثاني الذي يتبادر الى الذهن : ما هو محيط الشرق ؟ محيط كل امة الوسط الذي هي فيه ، لذلك كان الجواب البديهي ان الشرق محيط الشرقيين . ولكنني اخالف في هذا ايضاً كل الذين تقدموني في هذا البحث ، واطن هذا الاعتقاد الذي يعده الباحثون اولية لا تقبل جدلاً من أكبر الاغلاط العمرانية ان لم يكن اكبرها كلها . واذا لم يغير اطباء الاجتماع عموماً ، واطباء اجتماع الشرق خصوصاً ، رأيهم المتقدم بيانه اخشى ان يكون مصير الشرق في معترك الحياة الى الهزيمة التامة والاضمحلال القومي العاجل .

عندي ان محيط الشرقيين الآن الغرب لا الشرق . كان الشرق المحيط الطبيعي للشرقيين في الازمان الغابرة ، يوم لم يكن بواخر تشق عباب المياه

ولا سكك حديدية تخترق الممالك والبلدان ، يوم كان السفر من أوروبا الى آسيا اشبه بالسفر الآن الى القطب الشمالي او الجنوبي ، يوم كان الشرق مقفلاً ابوابه في اوجه الغرباء وكان الغرباء لا يسافرون الى الشرق الا نادرا . اما الآن فقد تبدلت الحال وجاء الغربيون آسيا المتقهقرة حاملين معهم محيطهم الراقي ، حاملين معهم علومهم وصناعاتهم وتجارتهم واختبارهم ، مسلحين بكل وسائل العمران ، شاهرين على الشرق حرباً اقتصادية في وسط بلاده وبين اهله ، ينازعونه البقاء في عقد داره ووسط بيته ، يستولون على ثروة الشرق سنة بعد سنة وقرناً بعد قرن . اذا كان في الشرق مصانع ومعامل تستحق الذكر فهي لهم ، واذا كان فيه سكك حديدية فهي ملكهم ، واذا كان فيه مناجم معدنية فهي من عملهم ، واذا انشئ فيه مرافئ فهي صنع ايديهم ، واذا شيدت فيه جامعات وكليات ومدارس فهي من صدقاتهم . اجل : جاء الغربيون الشرق حاملين معهم محيطهم الراقي .

لا تعجبوا ايها السادة ولا تقولوا في نفوسكم كيف يستطيع الانسان ان يحمل معه محيطه الى بلاد اجنبية . لا اتعدى انفسنا في اقامة الدليل على ذلك . اني لمقيم الدليل عليه من الجالية السورية في الجمهورية الفضية . أوتظنون ان محيطنا الآن الارجنتين ؟ كلا ايها السادة والف كلا ، فقد حملنا الى بلاد النور والعلم والتسامح محيط الظلام والجهل والتعصب الديني الذي كان يحيط بنا في بلادنا . ألم نحمل معنا الى هذه الجمهورية الجو القاتم الذي كان محيطا بنا في سوريا ؟ ألم نحمل معنا ايضاً الى هذه الجمهورية صغر عقولنا وضيق صدورنا واختلافاتنا المذهبية وتعصباتنا الدينية ؟ ألم نقتتل مراراً عديدة على ضفاف اللابلاتا ومرفأ بوانس ايرس كما كنا نقتتل على ساحة البرج في بيروت ؟ ألم نحمل معنا في تلافيف ادمغتنا واكياس صدورنا لعنة الشرق ، ونسفك دماء بعضنا البعض في سبيل جنوننا ؟ ألم نقف حجر عثرة في سبيل المشروعات العامة ؟ بلى ايها السادة ، تحمل الأمم محيطها الى المهاجر التي تقيم فيها ، وليست ريكونكيستا وتراس سرخنوتوس وسان مرتين من شوارع بوانس ايرس بل هي كلها من شوارع بيروت .

اجل : كما نحمل الى البلدان الراقية وسط الظلام الذي كان يحيط بنا وجو الجهل الذي كان يظللنا وهواء التعصب الذي كنا نتنفسه وماء الحقد

الذي كنا نشربه وخبز الخصومات الذي كنا نأكله ، كذلك يحمل الغربي الى الشرق وسط النور والعلم والتسامح والعمران . نحن نحمل محيط الضعف والفشل اما هو فيحمل محيط القوة والفلاح .

ولو كان محيط الغرب في الشرق ، ذلك المحيط الصغير الذي يحمله الغربيون الينا ، لهانت البلية . ولكن للشرق محيطاً آخر غربياً هائلاً غير منظور هو محيط الغرب في الغرب ، ذلك المحيط الذي هو على بعده أتبع لنا من ظلنا وألصق بنا من جلدنا . ذلك المحيط الذي يفعل عن بعد بالممالك الشرقية فعل الشمس بالسيارات . ذلك المحيط الذي هو اشبه بالاثير لا يُرى ولكنه في كل مكان ويحيط بنا من كل جانب ، فهو في الثوب الذي نلبسه والشراب الذي نشربه والطعام الذي نتناوله . هو في العربة التي نركبها والقطار الذي يقلنا والباخرة التي تسافر بنا . هو في جدران منازلنا وسقوفها ونوافذها وابوابها . في رياشها وأنيقتها في الكراسي التي نجلس عليها والاسرة التي نتوسدها . فهو معنا ليلاً ونهاراً وحولنا في كل زمان ومكان . هو محيطنا !

ان لم يفقه الشرق هاتين الحقيقتين العظيمتين وهما انه يترتب عليه ان يطابق نفسه على محيطه وان محيطه الغرب لا الشرق ، فعبتاً يحاول الحياة لأنه يموت موتاً ويهلك هلاكاً .

هذا هو المذهب العمراني الذي اريد ان أبشّره ، وهو الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها الشرق انقاذ نفسه من العقاب الذي انزلته به النواميس الطبيعية ، كما يقوم المجرم بالاشغال الشاقة في سجن الحكومة .

هذه قضية الشرق الكبرى ، اما سائر قضاياها الاخرى ففروع منها . الجهل يضر الشرق لأنه يعوقه عن تطبيق نفسه على محيطه ، وقد تقدم لنا القول ان محيطه محيط الغرب اي تمدن القرن العشرين . والتعصب الديني يضره ايضا لأنه يعوقه عن تطبيق نفسه على تمدن الغرب ، فاذا اتفق ان التعصب الديني لم يقف حجرة عثرة في سبيل تطبيق الشرق نفسه على محيطه لم يضره شيئاً او كان ضرره من الوجهة العمرانية قليلاً جداً ... وقس عليه الشقاق وسائر علل الشرق الكبرى والصغرى .

أوضحت هذه الحرب الهائلة ان الغرب ليس فقط محيط الشرق بل محيط العالم كله خلا الولايات المتحدة ، ولكن تأثيرها في الشرق كان اشد

منه في سواه . لماذا شعر الشرق حينئذٍ بالضيق الشديد ؟ شعر به لأن
المواصلات بينه وبين محيطه الحقيقي الذي هو الغرب قد انقطعت ،
ووجد نفسه فجأة للمرة الأولى في التاريخ العصري انه في محيط غريب ،
اغرب ما فيه انه محيطه الطبيعي !
تبدت حينئذٍ للشرق تعاسته وشقاؤه بأجلى معانيهما . اكتشف حينئذٍ
ان الغرب ليس فقط محيطه الطبيعي بل انه لازم له لزوم الماء للأسماك .
اكتشف اكتشافاً قلب فن الجغرافية رأساً على عقب . اكتشف ان آسيا
جزء من اوربا !

ايتها السيدات وايتها السادة

لا يمكن امة من امم العالم ان تطبق الآن نفسها على محيطها تطبيقاً
وافياً ما لم تشعر اولاً بأن حياتها العمرانية تتوقف على ذلك ، وانها اذا
لم تقم بهذا الواجب المقدس فهي اقرب الى الموت منها الى الحياة .
ان الحياة عبارة عن جهاد دائم وحرب سجال لا يضع لها حداً الا
الموت . فتتازع البقاء سنة الطبيعة الكبرى في الكائنات الحية ، وهو
تنازع لا يثبت فيه الا القوي ولا يسقط الا الضعيف ، وهو يجري على
الانسان مجراه على النبات والحيوان .

اصبح تنازع البقاء حقيقة نراها بعيوننا ونسمعها بأذاننا ونلمسها
بأيدينا . ينهض الواحد منا صباحاً ويذهب الى عمله او محل تجارته كأنه
ذاهب الى معركة ، ويعود منه عند المساء كأنه عائد من معركة . وما
يجري بين الافراد يجري ايضاً بين الأمم . وليست الحرب الحاضرة الا
تنازع البقاء في ارقى معانيه وأتممها ، ولكن هنالك حروباً عمرانية بين
الامم لا يسمع فيها لعلعة المدافع وصليل السيوف وقصف البنادق . هي
حرب صامتة لا تهرق فيها دماء ولا تتطاحن جيوش ، بيد انها بالرغم من
ذلك حرب حقيقية تسقط فيها امم وتقوم فيها امم .

النتيجة الطبيعية لكل ما تقدم ان الامة المرتقية تفوز في تنازع البقاء
على الأمة المنحلة ، لذلك أصبح الارتقاء ضرورياً لتنازع البقاء . وكل
أمة لا تسير في سبيل الارتقاء تتقهقر ، وكل امة تتقهقر ولا تتمكن بعد ذلك
من تطبيق نفسها على محيطها العمراني تموت موتاً .

ان محيطنا الغربي أخذ في الاقتراب منا بسرعة هائلة ، فهو اليوم

ادنى الينا منه امس ، وسيكون غداً أدنى الينا منه اليوم . سوف يحيط تمدن القرن العشرين بالشرق كما يحيط البحر بجزيرة ، فما هو فاعل يا ترى ؟ كلما اقترب منا هذا المحيط الجامع بين منتهى الجمال ومنتهى الهول ازدادنا حاجة الى تطبيق نفسنا عليه ، والخروج من احلام الشرق وتخيلات الشرق وأشعار الشرق الى عالم الحقيقة وساحات المعارك العمرانية وتنازع البقاء العصري .

يجب على الشرق ان يفقه ان الحياة والارتقاء أصبحا في القرن العشرين لفظين مترادفين . فالأمم غير الراقية تسقط في معترك تنازع البقاء العمراني كما تسقط في معترك تنازع البقاء الحربي . وكل امة تسقط في هذا العراك لا تقوم بل يدوسها التمدن الحديث بأقدامه الحديدية كما تدوسها الامة القاهرة بسنابك خيلها .

يجب على الشرق ان يفقه ان كل ما يحدث في الكون انما يحدث تبعاً لنواميس سامية لا تتغير ولا تتبدل ، وان النواميس الطبيعية تجري على الانسان مجراها على النبات والحيوان ، وان الشرائع العمرانية ضرب من هذه النواميس السامية الخالدة ، وانها شرائع حقيقية اشبه بنواميس الجاذبية والكهربائية ، وان على كل امة راغبة في الارتقاء ان تجري بموجبها .

يجب على الشرق قبل الشروع في البناء ان يشرع في الهدم . عليه أولاً ان يهدم عمرانته القديم البالي حتى يصير على مستوى الارض . عليه أولاً ان يهدم عمرانته الرث السخيف حتى لا يبقى منه حجر على حجر . من يبني قصراً فخماً على كوخ حقير ؟ من يبني تمداً عصرياً على الخرافات والالوهام ؟ من يجعل اساس النور ظلاماً ؟ من يجعل اساس القوة ضعفاً ؟ من يجعل اساس العلم جهلاً ؟ من يجعل اساس البناء جدراناً متداعية الى السقوط ؟

يجب على الشرق ان يفقه انه لا توجد في الكون صدفة ، وان ما يسميه العالم صدفة ليس الا ظاهرة من ظواهر النواميس الطبيعية التي لا يدري تعليلها ، وان ارتقاء الامم لم يحصل ولن يحصل بطريق الصدفة ، وان الامة التي تتطلب الارتقاء بالصدفة كالأعمى الذي يتلمس طريقاً وعرلاً لم يسلكه قط .

الامة التي تخوض معارك تنازع البقاء وسلاحها الصدفة اشبه

بجيش مسلح بأدوات صوانية يريد هزيمة جيش آخر مسلح بالسلاح العصري . ولكن الصدفة كانت ولا تزال اساس عمران الشرق الحديث . على اي شيء يعتمد المسافر في صحراء لم يطرقتها غير الصدفة ؟ على اي شيء يعتمد المسافر في الليل البهيم في مجاهل الارض الا الصدفة ؟ على اي شيء يعتمد المسافر في زورق وسط الاوقيانس الهائج سوى الصدفة ؟ هكذا الشرق فهو اشبه هؤلاء المسافرين او بهم كلهم .

يقول مشاهير العمران الغربيون انه يوجد بين الشرق والغرب هوة هائلة يستحيل اجتيازها . يقولون انه يوجد تناقض كبير بين فكر الشرق وفكر الغرب لا يمكنهم الاهتداء اليه . يقولون ايضاً انه لا يمكن احدهما ان يفهم الآخر ، وانهما سيظلان منفصلين ابد الدهر .

اذا جاز لي ايها السادة ان ابدى رأياً في هذا الموضوع الخطير ، فأنا على خلاف هذا الرأي ، رأيي أن التناقض الكبير بين الشرق والغرب كائن في ان الثاني منهما عرف النواميس الطبيعية والعمرانية وسار عليها ، أما الأول فلم يهتد اليها ولم ينتفع بمعرفة الغرب لها . اساس عمران الغرب الفلسفة الطبيعية العصرية ، أما الشرق فأساس عمران الفلسفة العقلية القديمة العقيمة . اساس فلسفة الغرب الحقيقة ، اما الشرق فأساس فلسفته الخيال . ألّف الشرقيون في علم الكلام ما يكفي افران بوانس ايرس شهوراً عديدة ، ونظموا من الاشعار ما يكفي افران الجمهورية الفضية بضع سنين . خذوا مثلاً الأزهر في مصر الذي هو من أعظم وأقدم المعاهد العلمية في الشرق . كان الطالب اذا دخله فتى لا يخرج منه بعد تنمة دروسه الا شيخاً ، وماذا كان يتعلم يا ترى اثناء هذا العمر الطويل ؟ كان جل ما يحزره بعد ذلك العربية والفقه وعلم الكلام واشباهها . يخرج من هذا المعهد دون ان يدري ما هو جار في العالم المتمدن ، ودون ان يفقه شيئاً من نواميس الطبيعة . ولم يتمكن المصلحون من ادخال بعض العلوم العصرية الابتدائية اليه كالجغرافية والرياضيات الابشق النفس ، وبعد ان رماهم بعضهم بالكفر والزندقة . أما الهوة الهائلة الكائنة بين الشرق والغرب فعلتها ما سبق بيانه ، وهي لا توجد الا بين مجاميع هذين العالمين . اما الافراد الشرقيون الذين يطلبون العلم في جامعات الغرب ومدارسه فلا يفرقون في شيء عن طلبة العلم الغربيين ، سواء في قوة الادراك او وجهة الفكر . ونعرف من

السوريين من بارى ارقى الغربيين وامتاز عليهم ، ومنهم الآن في اوربا من يُعد في مصاف اعظم علماء الغرب واشهر ثقاتهم .
ومن أهم الصفات التي تؤهل الشرقيين عموماً والسوريين خصوصاً للارتقاء سرعة تطبيق افزادهم على محيطهم الغربي ، اذ لا يمر عليهم حين من الزمن حتى يتخلقوا بأخلاق الوسط العمراني الذي يكونون فيه ، وهو الشرط الاساسي للحياة والارتقاء على ما تقدمت الاشارة اليه . ولكن هذا الارتقاء لا يتعدى الافراد الى المجاميع البشرية ، والهوة الهائلة لا تزال بينهما ، ولكنني لست من الذين يذهبون الى استحالة اجتيازها .
بين ظلمات الشرق الدامسة تألق نور باهر ، وبين امه السائرة في اوقيانس العمران العجاج على زوارق قديمة بالية وُجدت امة شرقية تستعمل البخار والحك . وُجدت امة آسيائية اطاعت شرائع العمران واجتازت الهوة الهائلة القائمة بين الشرق والغرب . وُجدت امة شرقية استيقظت من احلام الشرق وجرت الى العمران بعقل مفكرويين راسخ . ظهرت في الشرق امة سارت على آثار الغرب . نرفع قبعاتنا لليابان ونحني رؤوسنا اجلالاً لها . اليابان الأمة الوحيدة في الشرق التي سارت على هدى في طريق العمران .

لا يستقيم لأمة عمران ولا يدوم لها ارتقاء الا اذا كانت اخلاقها راقية . فارتقاء الاخلاق شرط ضروري لارتقاء الامم . وحال كل امة من المدنية والعمران مقياس اخلاقها .
الاخلاق ترفع الأمم من حضيض الانحطاط الى قنة الارتقاء ، فتدفع الشعوب الى النهوض حتى تبلغ المنزلة السامية التي تتطلبها نفوسها الكبيرة في مراتب الاجتماع . فهي دائماً وابداً اشبه بقوة حية تكهرب الأمة وتنفخ فيها حياة جديدة .

الأخلاق من اهم العوامل في تطبيق الأمم على المحيط . ولا يمكن امة من امم العالم ان تقوم بواجبها العمراني وتشغل مركزاً سامياً في مراتب الامم المتمدنة ، الا اذا شرقتها اخلاق سامية تنبها الى الشعور بذلك الواجب والجري عليه طبقاً لما تقتضيه النواميس الطبيعية . فمنزلة الامم السامية في التاريخ بقدر ما أوتيت من سمو الاخلاق . لم تشغل اليونان القديمة المركز الذي رفعت نفسها اليه إلا بتلك الاخلاق الباهرة التي سوّدتها على العالم ، وكانت باعثاً على نشر التمدن اليوناني في سائر اقطار

الارض .

لم ترتق رومية الى تلك المرتبة الباهرة ولم تنشئ ذلك التمدن الباذخ والعمران الشامخ الا بتلك النفوس الكبيرة التي لم يكد يسعها العالم كله . وكان ارقى عمرانها ذلك العهد العجيب الذي رفعها الى اسمى درجات الفخاريوم كانت اخلاقها بالغة منتهى الارتقاء .

واذا تفقدنا تواريخ الامم القديمة او العصرية وجدنا ان بداءة انحطاطها كان ذلك الطور الذي اخذت فيه اخلاقها في الانحطاط .

الاخلاق تحول الامم في اخرج مواقفها الى شعوب مكهرية ، فينسى كل رجل نفسه ولا يفكر الا بالواجب الذي تفرضه عليه المصلحة العامة . الاخلاق تنقذ تمدن الامم من الفناء ، وكما انقذت تمدن اليونان يوم هاجمها الفرس بجيوشهم الزاخرة ، وكما انقذت تمدن رومية يوم انقض عليها هنيبال الكبير من جبال الالب الشاهقة انقضاؤا النسر الكاسر . الاخلاق تدفع الفرد الى القيام بواجبه العمراني نحو نفسه وامته ، وتدفع الامة الى القيام بواجبها العمراني نحو نفسها والعالم .

ان لسوريا الحديثة رسالة عمرانية للشرق ، كما كان لفينيقية رسالة عمرانية للعالم . ولم آت على ذكر مجد سوريا القديمة وبادخ عرّها الا توطئة لما يترتب على سوريا الحديثة القيام به في سبيل عمران الشرق .

كما انبثق من فينيقية في غابر الدهور مدنية قديمة انارت العالم ومهدت له سبيل العمران ، كذلك يجب ان تنبثق من سوريا في القرن العشرين مدنية عصرية تكون بداءة طور جديد للشرق الادنى .

ولكن لا بُد لسوريا اولا من ان ترتقي هي نفسها حتى تصير صالحة لترقية الغير . ولا يمكنها الارتقاء التام الا اذا عملت بالنواميس الطبيعية وطبقت نفسها على محيطها ، كما تقدمت الاشارة اليه . ولا يمكنها القيام بذلك الا اذا شعرت اولا بحاجتها الاضطرارية الى هذه الخطوة الحيوية .

ان لسوريا من الارتقاء العلمي ما يؤهلها للارتقاء العمراني . فالجيل الجديد الذي سيكون عمدتها في حياتها الاجتماعية جيل متنور . وفي الطبقة الراقية وقادة الرأي العام في الوطن ومهاجر مصر وباريس والولايات المتحدة والبرازيل والجمهورية الفضية وغيرها نفر نفتخر بهم ، قلما يوجد ارقى منهم في ارقى بلدان الغرب .

ان مسألة تطبيق سوريا نفسها على تمدن القرن العشرين قضية

صغرى من قضية الشرق الكبرى التي اتينا على بيانها . ولكن هذه القضية الصغرى هي بالنسبة الينا اكبر قضية ، ليس في الشرق فقط ، بل في العالم كله لأنها تعنينا نحن السوريين ، وعلى حلها يتوقف نشوؤنا الاجتماعي وارتقاؤنا العمراني ، وعلى وجهة النظر فيها تتوقف بدأة سيرنا في طريق العمران . فاذا سرنا في الصراط المستقيم ، صراط الذين انار العلم بصائرهم وشرفت الاخلاق النبيلة سرائرهم ، كنا على هدى في طريقنا وبلغنا محجة الارتقاء الذي ننشده والذي سارت في طريقه القويم الأمم التي سبقتنا الى غاياته الكبرى . أما اذا بدأنا السير بطريقة ضالة في طريق مضللة ، ضللنا وكانت ضاللتنا الاخيرة شراً من الاولى . كل شيء يتوقف على الخطوة الاولى التي نخطوها . كل شيء يتوقف على الوجهة التي نولي وجوها شطرها . كل شيء يتوقف على النظرية الاولى من نظريات الاجتماع .

نحن الآن في موقف اشبه بموقف المسافر في الصحراء ووسط الاوقيانس ، فاذا لم يكن لنا حرك ، صرفنا قوانا الحيوية في السير على غير هدى يمنة ويسرة ، شمالاً وجنوباً ، شرقاً وغرباً . وقد نرى انفسنا بعد كل هذا التخبط في الموقف الذي كنا فيه ساعة شرعنا في المسير .

تقدم لي القول ان الوسيلة الوحيدة لارتقائنا انما هي الجري بموجب النواميس الطبيعية التي يجب ان تكون هادينا ومرشدنا في السبيل الذي نسلكه . يجب ان تكون حكنا في طريق الصحراء والاوقيانس .

اول شروط الحياة ان توجد في المادة قوة حيوية . ومن مميزات هذه القوة النمو من الباطن . وهو لا يعني زيادة حجم المادة فقط ، لأنك اذا وضعت بلورات في سوائل خاصة ازداد حجمها بما يرسب على سطوحها المنتظمة من المواد البلورية .

الخطوة الاولى لارتقاء الامم المنحطة وجود قوة عمرانية ذاتية فيها تكون باعثاً على النمو التدريجي . لا بأس بأن تكون هذه القوة اولاً اشبه بنواة صغيرة . ولكن يجب ان تكون من الأمة وفيها ، لأن من البديهي ان الحركة العمرانية التي تستمدّها الأمة من الخارج تبطل ببطلان القوة المحركة . ومتى كانت القوة الحيوية العمرانية من الأمة وفي الامة وللأمة ، امكنا ان تطابق نفسها على التمدن العصري . وبدون هذه القوة لا يُرجى لأمة قط حياة عمرانية طويلة .

يجب علينا ، نحن الشرقيين ان نعتد على قوتنا نحن ولو اوهية . يجب ان يكون لنا حياة عمرانية باطنية حقيقية ، لا حياة خارجية بلورية كاذبة .

لا اعني بذلك انه يترتب علينا ان ننشئ عمراً جديداً لا علاقة للغرب به ، بل بالضد من ذلك ، يترتب علينا ان نشاطر الغرب تمدنه . ولكن لا نجدنا نفعاً ان نطلي اجسامنا بالتمدن الغربي ، بل يجب ان نحقق به اوعيتنا الدموية حتى يدور في شراييننا واوردتنا ويصبح قطعة من حياتنا .

على الشرق ان يدرك أولاً ثلاث قضايا كبرى ويعمل بها : الاولى ، انه يترتب عليه ان تكون فيه قوة حيوية عمرانية لا يستمدّها من العالم الخارجي . الثانية ، وجوب مطابقة نفسه على محيطه . والثالثة ، ان يدرك ان محيطه تمدن القرن العشرين .

متى ادرك هذه القضايا الكبرى وعمل بها تبدلت حاله كما بسحر ساحر ، واصبح نداً للغرب في كل شيء . تملأ حينئذ جامعاته ومدارسه مدنه وقراه . يخترع ويكتشف نبغاً كما يخترع ويكتشف نبغاء الغرب . تحترم امه نفسها وتضطر الآخرين الى احترامها . تملأ معاملها ومصانعها بلدانه حتى تصير وافية بحاجات اهله وغير اهله . يصفر البخار في قنن جباله وبطون اوديته ، وترن المطارق الصناعية في ارجائه رنين موسيقى مطربة . تقطع بواخره الاوقيانسات والبحار حاملة تجارتها من صقع الى صقع ومن قارة الى قارة . يخرج كنوزه الفحمية والحديدية والنحاسية والذهبية التي فيه منها ما يكفي الكرة الارضية كلها . يشق احشاء ارضه بالمحاريث البخارية التي تقلب تربته بطناً على ظهر . يحول انهاره الزاخرة الذاهبة الآن ضياعاً الى خزانات وترع تفيض عسجداً ولجيناً . يهدم مدنه القديمة المظلمة الرطبة ويشيد على انقاضها مدناً عصرية زاهية صحية . تخترق مدنه وقراه السكك الحديدية وتتشعب في انحاءها تشعب الاوعية الدموية . تنير الكهرباء مدنه وتحولها من قبور مظلمة الى قصور باذخة ، وتدير آلاته الميكانيكية ومعاملها الصناعية . يتحول الشرق كما بسحر ساحر الى عالم جديد يبهّر عمرانه الابصار ويطاول مجده ارقى الاقطار !

متى جرى الشرق الى الارتقاء متمشياً على النواميس الطبيعية ،

يصافح حينئذٍ الغرب ويقول له : لقد اكتشفت مثلك في جنة الطبيعة
شجرة معرفة الخير والشر ، وأكلت من ثمرها فانفتحت عيناى ، وهأنذا قد
صرت الآن إلهاً نظيرك !.

لا إله إلا الله	
-----------------	--

فلسفة الجوع

قد يبدو لك هذا الموضوع غريباً في بابه ، ولكننا الآن في عصر العجائب والغرائب ، ولا غرو اذا شذذنا عن المواضيع التي ألفتها الاسماع وطرقنا موضوعاً جديداً .

افتتحنا السنة الاولى من « المجلة » بمقالة عنوانها « فلسفة القوة » املتها علينا دروس الحرب الاوروبية ، والآن نفتتح السنة الثانية بمقالة عنوانها « فلسفة الجوع » . والراسخون في العلم يعلمون ما تكون افتتاحية السنة الثالثة ، اذا ظللنا على قيد الحياة .

فلسفة الجوع .. اقوى فلسفات العالم واشدها تأثيراً في الهيئة الاجتماعية ، وهي اقوى من فلسفة القوة بما لا يقدر .

القوى ضربان : الواحد منهما ساكن او كامن ، والآخر عامل او متحرك . خذ الكهربائية مثلاً ، تراها متى كانت متوازنة كامنة لا اثر لها على الاطلاق . فهي كالالكهربائية أو كاللاقوة ، خلافاً لما تكون عليه وهي عاملة أو متحركة . فانها تحرك حينئذ القطر وتدير المعامل والمطارق الصناعية ، وتطلق المدافع الضخمة التي تدك الحصون وتترك المعامل اثراً بعد عين . ومتى كانت الكهربائية كامنة اوساكنة ، لا يظهر من اثرها ما يدل على قوتها ، فتكون عندئذ بمثابة العدم .

أما الجوع فهو ضرب من ضروب القوة ، ولكنه يختلف عن سائر القوى في امر خطير ، هو انه لا يمكن ولا يكون مطلقاً في حال التوازن ، بل هو متحرك دائماً وابدأ ، وفعله في الاحياء اشد من سائر قوى الطبيعة مجتمعة .

[نشر هذا البحث تحت باب « المقالات العلمية » في « المجلة » الجزء الاول ، السنة الثانية ، بوانس أيرس في ١٥ حزيران سنة ١٩١٦ .]

إذا أعملت النظر في الكائنات الحية على وجه العموم ، وجدت العامل الأكبر لارتقائها إنما هو الجوع ، لأنه الدافع الأعظم الى الحركة . فلولا الجوع لم يكن هناك طلب غذاء ، ولولا طلب الغذاء لم يكن تنازع بقاء . فالجوع إذاً أكبر عامل في تنازع البقاء ، وهو يتناول عالم النبات كما يتناول عالم الحيوان . وتنازع البقاء في أقوى معانيه وأتمها ، إنما هو تنازع الغذاء .

إذا غرست نبتتين جنباً الى جنب ، تنازعنا غذاء التربة واشتبكتا في حرب طاحنة صامته قوامها تفاعل الجذور . فتلتف جذور النباتات القوي على الضعيف ، ولا تنفك عنها حتى تخنقها ، كما يخنق رجل رجلاً . وقس عليه تنازع الافراد والجماعات والانواع .

كان الجوع او الحاجة الى الغذاء ، اعظم دافع لترقية الانواع . ولولا ذلك لبقيت الكائنات الحية في حال الترهل والخمول ، ولما تكيّفت وارتقت الارتقاء الذي نراه عليها الآن .

بيد أن للجوع في الهيئة الاجتماعية اثرأ في ترقيته قد يفوق سائر الفواعل الاخرى . والحقيقة انه كان الحد الفاصل الأعظم في التاريخ بين العصور المظلمة والعصور النيرة ، واليه يرجع الفضل الأكبر في حدوث اعظم الحوادث التاريخية على وجه الكرة الارضية طراً ، وهو الثورة الفرنسية .

لا ريب في ان كتابات فولتير وجان جاك روسو وغيرهما من فلاسفة الفرنسيين كانت بمثابة باعثاً كبيراً على اثارة الخواطر . ولكن فلسفة الجوع فاقت فلسفتها وجميع فلاسفة العالم بمراحل ، لأنها كانت السبب المباشر في نهوض تلك الامة الغريب ، واتيانها اعمالاً عجيبة بذلت تاريخها وتاريخ العالم اجمع .

تعود شرارة الثورة الفرنسية الى ايام الملك لويس الخامس عشر الذي سمي حينئذ « حبيب الامة » خطأ . فقد عض الجوع يومئذ الشعب بنابه ، فأرسل الى ملكه لجنة تطلب منه خبراً للشعب الجائع ، فكان جواب الملك ان شنق اعضاء اللجنة لجرأتهم على طلب الخبز ، وكانت جنتهم المتمرجة في الخلاء ، كما قال الكاتب الشهير كارليل ، أحرفاً هيروغلوفية ترمز الى الولايات العتيدة .

لولم يقرص الجوع الشعب الفرنسي ، لما تأججت نيران تلك الثورة

الكبرى ، التي يحسبها المؤرخون بدء التاريخ الحديث . فقد هجمت النساء الجائعات ، حاملات أطفالهن الجياع ، على قصر فرساي جيشاً جراراً ، وطلبن من الملك لويس السادس عشر المنكود الطالع خبزاً لهن ولأطفالهن . أمام هذا الجيش الكبير من النساء الجائعات ، وقف الجنود الفرنسيون البواسل حيارى ، لا يجسرون عن شهر سيف في وجههن او اطلاق بندقية على أجسادهن .

خرقن صفوف الجيش كاللبؤات الهائجات أو النمورة المستقتلات ، لأن الجوع أوتر عضلاتهن وجرح قلوبهن ، حتى هال منظرهن الجنود الذين خاضوا غمار المنية في ساحات المعارك لا يرهبون المعادل ولا المدافع .

رفض الجوع التسوية بين طبقات الشعب . وما لبث الشعب الفرنسي بعد ذلك ان استغزه الجوع ، فحمل على الاغنياء والشرفاء الذين كانوا يبيتزون أمواله ، تلك الحملة الشعواء التي لا مثيل لها في التاريخ ، حتى أصبح الغنى والشرف مسبّة ، فساق أغنياءه الى المقصلة او الغيلوتين ، حتى دبّ الذعر في قلوب هؤلاء فهربوا الى الحدود ، بينما ارتدى من بقي منهم في البلاد أطماراً بالية ، وأصبح الاغنياء والشرفاء يتبارون في الظهور أمام الشعب بمظهر العامة والفقراء .

فعلت فلسفة الجوع في الشعب الفرنسي ما لم تفعله فلسفة فولتير وروسو واضرابهما ، لأنها فلسفة قاهرة ، يؤثر منطقها في النفوس حالا . فلسفة لا متسع عندها للانتظار ، وهي لا تجادل ولا تناقض ولا تصبر ، ولا تأتي في أبحاثها على براهين ولا على أدلة ، لأن العضو المفكر في هذه الفلسفة هو المعدة .. لا الدماغ .

قوام فلسفة الجوع القوة لا الحق ، او الحق الذي تعتبره القوة حقاً . وهي الفلسفة التي تجري عليها الآن الدول المتحاربة ، وهي أرقى دول اوروبة . فتوزيع الطعام على أفراد الشعب توزيعاً عادلا ، واهتمام الحكومات بايجاد عمل لكل عمال شعبها ، وتقديم الطعام للعائلات التي لا معين لها ، نتيجة من نتائج فلسفة الجوع .

كانت المانية ، التي هي أسبق دول العالم الى السير على نظام دقيق في كل شيء ، أسبق الدول المتحاربة الى ادراك فلسفة الجوع والعمل بها منذ بدء نشوب الحرب . ومن قواعد العامة في هذا الصدد ، ان كل من

يتناول طعاماً أكثر مما يلزم لكفايته فهو خائن لوطنه ومعاون للأعداء على خراب بيته . وقد شاهدنا منذ بضعة أشهر رسماً في بعض الصحف المصورة ، رسماً يمثل المانياً في مطعم وقد اخذ بخناقه شرطيان ووجه كل منهما مسدساً الى دماغه ، وقاده الى المحكمة ، والذنب الذي ارتكبه إنما كان طلبه من صاحب المطعم لحماً مشوياً وشيئاً من البطاطا .

اجل ، لقد فعلت فلسفة الجوع في سبيل مبادئ الاشتراكية في اوروبة ما لم يفعله فلاسفة الاشتراكيين في العالم أجمع ، ولم يبق عامل في البلدان المتحاربة كلها بلا عمل ، واصبحت العائلات التي كانت تقاسي سابقاً آلام الجوع مساوية للعائلات الغنية التي كانت تعيش بالترف والبذخ . وعلى الاجمال ، فان العمال الآن في البلدان المتحاربة على حال من الاكتفاء لم يحلموا به قبلاً .

كان من حسنات هذه الحرب الطاحنة ان افسحت مجالاً لفلسفة الجوع التي خففت احلام الاشتراكيين اثناء الحرب . ونحن على يقين من انها ستحققها ايضاً بعد انتهاء هذا العراك الهائل ، لأنه من المحال ان يبقى العالم سائراً على نظام القديم الذي كان جائراً على الفقير والعامل جوراً كبيراً . ولم يرَ العمرانيون حلاً عملياً لهذه المعضلة ، حتى جاءت الحرب فقطعت هذه المعضلة بسيفها .

اجل ، سيكون العالم بعد هذه الحرب عالماً جديداً ، لا بسبب الفظائع والخسائر الكبيرة بالمال والرجال التي افضت اليها الاجراءات الحربية مباشرة ، بل بسبب الجوع ايضاً الذي قرص شعوب الدول المتحاربة ، وأنقل كواهل ملايين البشر شقاء وآلاماً تربو على آلام الجنود في الخنادق والجيوش التي تتلقى بصدورها قنابل المدافع ورصاصات البنادق ونصال الحراب .

سوف تقلب الشعوب العروش الباذخة والملوك المستبدين والحكام الجائرين ، وتشيد على هذه الانقاض حكومات دستورية بالفعل ، لا تكون الألعيب في أيدي رؤسائها .

لقد ضجرت الأمم والشعوب من اكاذيب التمدن وترهات العمران وعيل صبرها . وهي تريد بعد هذه الحرب ان تكون سيدات وسادة نفسها ، لا كرات تتقاذفها صنالح أصحاب المطامح وذوي الأغراض . لا تريد الأمم والشعوب ان تتكرر هذه الفاجعة العظمى مرة اخرى

على مسرح العالم ، وسوف ترفع صوتها بالاحتجاج حتى تسمعها الناس على الارض والآلهة في السماء .

سوف تفعل أكثر من الاحتجاج العقيم الذي لا يجدي نفعاً ، فتتألب الشعوب على ظالمها والذين أذاقوها مرارة الجوع ، فتلتف عليهم التفاف الأفعى الهائلة ، وتهصرهم بحلقاتها المتقبضة فتسحق عظامهم سحقاً . كما أطعموها حشيشاً ستضع في أفواههم حشيشاً . وكما كانوا يشاهدون شقاءها دون أن تأخذهم شفقة ولا رحمة ، سوف تشاهدكم في حشجة الموت دون أن يخفق لها قلب أو يختلج لها عضو .

كما أربوها بالحديد سوف ترهبهم بالفولاذ . وكما أدبوها بالسياط سوف تؤدبهم بالعقارب . وكما طحنوها بالفيالق سوف تطحنهم بجيوش لا تبدو بجانبها الجيوش الحاضرة ، على عظمتها وضخامتها ، شيئاً مذكوراً . لأن الأمم والشعوب سوف تكون كلها ، برجالها ونسائها وشبانها وشيوخها وكهولها وفتيانها ، جيوشاً جارية تزار كالآساد الزاحفة من عرائنها وقد قرصها الجوع .

الويل للظالمين ، الذين ترتد عليهم الأمم ارتداد لبوات جائعات أحاطت بها أشبالها الجائعات .

كما كانت أصوات الجرحى والمنازعين في الخنادق وساحات الوغى تلورعود المدافع وقصف الرشاشات ، كذلك سوف يعلو صراخ الظالمين والطغاة حتى يرتفع فوق غضبة الأمم الهائجة والشعوب المظلومة .

سوف تتشنج الأرض كما بانفجار لغم هائل يمتد من القطب الشمالي حتى القطب الجنوبي ، فيدك عروش البغاة وحصون العتاة وقصور الظالمين وأندية المستبدين ... فتزلزل الأرض زلزالها بانفجار بركان يشق جوانبه ويقذف من فوهته حمماً ودخاناً وناراً تحرق كل ظالم وتخنق كل باغ وتأكل كل طاغية .

ان معضلة العالم الكبرى ، التي قصرت عن حلها فلسفة القوة وفلسفة الحق ، سوف تحلها فلسفة الجوع . لأن هذه الفلسفة تأكل كل شيء حتى الفلاسفة أنفسهم .

تنسى الأمم قتلى الحرب والدماء التي أريقَت في ساحات الوغى ، وتتبدل الصداقة والعداوة ، وينقلب العدو صديقاً والصديق عدواً ، كما تشهد بذلك هذه الحرب ... ولكن الأمم لا تنسى ، ولن تنسى قتلى

الجوع .

أجل ، سيكون خلاص العالم على يد فلسفة الجوع . ومتى انتهت هذه الحرب الطاحنة ، ارتدَّت الأمم على حكوماتها الظالمة وحكامها الطغاة ، وناقشتها الحساب على ما جنت أيديها من البغي والطغيان وما أنزلته بها من الجوع والشقاء .

بل قد يكون قيام الأمم على حكوماتها ، وملوكها المستبدين الباعث الأعظم على تقصير أجل هذه الحرب ، التي اضجرت الآلهة في السماء والناس على الأرض . وسيكون الجوع العامل الأكبر في هذه النهضة ، التي سوف تدق حصون الاستبداد ومعقل الظلم الى الأبد .

الويل للظالمين يوم يجيء الحساب ، وترتدُّ الشعوب على مروضيها الذين ساقوها قسراً الى هذه الحرب الطاحنة .

انه سيكون يوماً رهيباً يصرخ فيه الطغاة قائلين : « يا جبال اسقطي علينا ... ويا آكام غطينا .. » .

استقله

كتاب مفتوح
الى السوريين واللبنانيين والفلسطينيين

يا بني وطني

ارفع اليكم التهاني لتحرككم من سيطرة الاتراك الظالمين الذين ساموكم خسفا وجورا وتحكموا فيكم اربعة قرون طوال ، لم يتعلموا في اثنائها شيئا ولم ينسوا شيئا ، فشادوا سلطنتهم على الاستبداد وأسسوا ملكهم على الظلم واتخذوا لحوم الأمم التي تحكموا فيها طينا لبنائهم ودماءها ماء لذلك الطين ، وبنوا حجارته من جماجم الشعوب الراضحة تحت اثقالم الهائلة . ولكن هنالك مثالا لاتينيا يقول متى ارادت الآلهة اهلاك احد ضربته اولا بالجنون ، وهو ما فعلته بالاتراك ، فلقد ضربتهم بجنون ليس وراءه من جنون فزجوا بأنفسهم عمداً في هذه الحرب الطاحنة وحفروا قبرهم بأيديهم . وها هم الآن قد توسدوه فواراهم الدهر فيه وسيبقون في قبرهم الى الابد !

يا بني وطني

نحن الآن واقفون على مفرق الطرق . فمستقبل سوريا ولبنان متوقف على الخطوة الاولى التي نخطوها ، و متى بدأنا السير في طريق لا نسير فيها عشر سنين او مائة سنة او الف بل نسير الى الابد !
اننا الآن في هيكل الوطن ، فيجب علينا ان نركع امام مذبحه ويقسم كل منا يمينا رهيبه ان يكون مخلصا له كل الاخلاص وان يبذل ما اوتي من مواهب عقلية وقوى ادبية وما يمكنه بذله من موارد مادية في سبيل استقلاله .

[تصدّر هذا الكتاب المفتوح الى السوريين في الوطن والمهاجر عدد « المجلة » الصادر في بوانس ايرس في ١٥ تشرين الثاني سنة ١٩١٨ . ونشرت تحت باب « مباحث عمرانية » . وكانت قد اقيمت العديد من الاحتفالات في العاصمة الارجنتينية بمناسبة تحرير سورية من الاتراك ، وألقى الدكتور سعادة عدة خطب في هذه المناسبة] .

اجل : يجب علينا ان نقترّب من الوطن كما يقترّب المسيحي من مذبح الكنيسة او المسلم من الكعبة ، لأنه عندنا اقدس بقاع الارض . فالوطن هيكلنا العام تجتمع فيه عبادته رُكْعاً سجدواً يدينون بدين واحد هو الوطنية . والاستقلال مذبح ذلك الوطن ، فيجب ان ندنو منه بخشوع وورع كما يدنو المسيحي من مائدة الرب والمسلم من جبل عرفات ، وان نغسل ضمائرنا قبل ذلك من ادران العالم ونطرح عنا آثامنا وخطايانا الوطنية كما يطرح المشرف على الموت آثامه وخطاياه الدينية ، لأننا مشرفون على الاستقلال وهو ولادتنا ... وساعة ولادة الأمم رهيبة كساعة الموت ! .

ليس فينا الآن مسلم ومسيحي ودرزي ويهودي . فالمشائق نصبت للجميع على السواء ، والمجاعة انتابت الجميع على السواء ، والابوئة حصدت الجميع على السواء . فلقد صهرتنا هذه الحرب الآكلة في بوتقتها المتأججة ، وكوّنت منا كتلة واحدة . فنحن الآن سوريون ولبنانيون وفلسطينيون دون فارق في الاديان والمذاهب .

لنتصافح امام هذا المذبح الذي نحن الآن راكعون حوله ، ولنعتقد الخناصر والقلوب على ان نكون يداً واحدة في خدمة الوطن خدمة منزهة عن كل غرض ، ولنتحد اتحاداً لا انفصام بعده ، لأن اتحادنا في هذه الساعة الرهيبة ساعة ميلادنا الوطني ليس فقط قوتنا بل حياتنا ، وانشقاقنا ليس فقط وهننا بل موتنا موتاً ابدياً .

الويل لمن تأتي بسببه في هذه الساعة الرهيبة العثرات الوطنية !

خير لذلك الرجل ان يعلق في عنقه حجر الرchy ويطرح في البحر !!

يا بني وطني

نحن الآن في فترة غريبة جداً وقصيرة جداً لا مثيل لها في تاريخ الدهور الغابرة ، وقد لا يكون لها مثيل في تاريخ العصور الآتية . فهي فترة نضال هائل بين عصرين يتصارعان صراع اليأس ، الواحد منهما في حشجة الموت والاخر في فجر الحياة . وفي هذه الفترة القصيرة التي هي اشبه بغمض الجفن تحتضر أم وتولد أم ، فمن أي الأمم تريدون ان تكونوا ؟

ان أردتم ان تكونوا من الأمم المتحضرة فلا تفعلوا شيئاً او افعلوا ما انتم فاعلون . تنابذوا وتخاصموا وتهاتروا وانشقوا وليطلب بعضكم

احتلال هذه الدولة وحمايتها ، وليطلب الآخر احتلال تلك الدولة وحمايتها ، وليطلب آخر الانضمام الى تلك المملكة ، وليفرغ فريق منكم ما أوتي من ذلاقة لسان في اقامة الدليل على اننا لا نصلح لنحكم انفسنا واننا لا نفقه شيئاً من مبادئ العمران ولا نعلم مقدار ذرة من نواميس الحياة ... لأن هذه اقرب طرق الخراب والهلاك .

اما اذا شئتم ان تكونوا في عداد الأمم الحيّة فهبوا هبة رجل واحد ، واتقوا الله في وطنكم ، واحترموا انفسكم لأن من لا يحترم نفسه لا يحترمه احد . واطلبوا حقوقكم الطبيعية التي منحكم اياها الله مع الهواء الذي تتنفسونه والماء الذي تشربونه والسماء التي تظلكم والارض التي تقلكم .

اطلبوا الاستقلال ! اطلبوه بصوت عالٍ يبلغ عنان السماء بلا خجل ولا وجل . اطلبوه عاجلاً . اطلبوه الآن قبل فوات الفرصة لأن الوقت لا ينتظر احداً . دولاب الدهر يدور الساعة بسرعة هائلة لا مثيل لها في تاريخ العالم . وعما قليل يعقد الحلفاء مؤتمر السلم الذي سيكون حكمه فصل الخطاب في مصير الامم والشعوب . فمتى خرج منادي المؤتمر ينادي « جاء دور سوريا ولبنان وفلسطين » فما يكون جوابهما يا ترى ؟

يا بني وطني

لا تصيخوا سمعا الى القائلين انكم لم تهرقوا من دماءكم ما يوازي ثقل الاستقلال . فالأمة التي سدت في وجهها طرق البحار وضرب الاتراك حولها نطاقاً من الفولاذ ، ولا اسلحة ولا ذخائر عندها ، تفتك بها المجاعة وتحصدها الاوبئة ، لا طاقة لها على اضرار نار الثورة الا اذا كانت رغبة في الانتحار . ولو انزل الحلفاء جيوشهم في سوريا عوضاً عن انزالها في الدردنيل لالتف حولها السوريون واللبنانيون والفلسطينيون وقصدوها من كل فج عميق .. والأمة التي جاهرت بميلها الى الحلفاء والسيوف مصلتة فوق رقابها والمشائق منصوبة امام اعينها ليست بالامة الجبانة ولا بالامة التي لا تستحق الحياة .

لا يجوز ان تقاس حرية الامم بقوتها الحربية ، ولا ان يغتصب حق لمجرد كون صاحبه لا يقدر على استرداده بالقوة . ولقد اعلنت حكومات الحلفاء من منابرهما انها تحارب في سبيل تحرير الشعوب الضعيفة وانالتها حقوقها الطبيعية ، وهي الاستقلال ، وان يكون لها الحق المطلق

في ان تتولى شؤونها بنفسها وتختار نوع الحكومة التي تريدها وتنتخب من ترى فيهم الصلاحية لخدمة وطنهم . وصرحت غير مرة ان سوريا في عداد هذه الشعوب .

لماذا نرفض الحرية ونرضى العبودية ؟ لماذا نسبك بأيدينا اغلالنا وقيودنا ؟ لماذا نصنع اقفاسا لنا ولذريتنا ونحن طليقون ؟ لماذا ندوس بأقدامنا ائمن درّة في تاج الوطن ؟ لماذا نحتقر نفوسنا واعظم أمم العالم طراً تحترمنا ؟ لماذا نرفض حقوقنا الطبيعية التي بذل الحلفاء الشرفاء دماءهم الشريفة في سبيل استرجاعها من يد المغتصب واعادتها الينا ؟ لماذا نصغر نفوسنا ؟ لماذا نعفر وجوهنا ؟ لماذا نقف على الباب وقفّة الذليل المستعطي ونحن اصحاب الدار ؟

اعرضوا عن مثل هذه الصغائر وكونوا رجالا احراراً . واعلموا ان هذه الفرصة السانحة الآن لن تسنح لكم مرة اخرى ابد الدهر ، فما يحكم به مؤتمر الحلفاء الآتي يحكم به الى الابد .

يا بني وطني

لا توجلوا الى الغد ما يمكنكم عمله اليوم ، لأن الغد ليس لكم ولا لي بل هو لله والطبيعة . ومصير الامم سائر الآن بسرعة دوران الارض حول الشمس . فكل يوم بل كل ساعة بل كل دقيقة تمر دون ان نقوم فيها بالواجب المقدس الذي يدعونا اليه الوطن جريمة يسجلها علينا التاريخ الى الابد !

لا يكفي ان نهبّ هبة واحدة ولا ان نعمل كلنا ، بل يجب ان يكون عملنا منظماً لأن السر كل السر في التنظيم . فالجماعات القليلة المنظمة لخير بكثير من الجماعات الكثيرة المشوشة . لأن في الاولى دماغاً مفكراً مدبراً يسيّر القوى كلها معا في وجهة واحدة الى غرض واحد ، اما في الثانية فالقوى متضاربة متنافرة او تسير في وجهات مختلفة فتفني الواحدة منها الاخرى او تفنى كلها بفراغ زخمها . والاولى اشبه بالقوة الكهربائية التي تدير الآلات الميكانيكية المنتظمة خلافاً للثانية التي هي اشبه بقوة الشلالات التي تذهب عبثاً .

يجب ان يكون في كل عاصمة من الولايات السورية جمعية مركزية تعود اليها سائر جمعيات الولاية ، وان تعود الجمعيات اللبنانية الى جمعية مركزية في مدينة زحلة ، والجمعيات الفلسطينية الى جمعية

مركزية في القدس .

أما في المهاجر فيجب ان تعود الجمعيات السورية واللبنانية والفلسطينية في مصر الى جمعية مركزية في القاهرة ، وفي فرنسا الى جمعية مركزية في باريس ، وفي انكلترا الى جمعية مركزية في لندن ، وفي اميركا الشمالية الى جمعية مركزية في نيويورك ، وفي اميركا الجنوبية الى جمعية مركزية في بوانس ايرس .

على الجمعيات المركزية في سوريا ولبنان وفلسطين ان ترسل مندوبا واحدا الى بيروت ، وتعين الجمعية المركزية في بيروت مندوبا عنها . ويؤلف هؤلاء المندوبون لجنة وطنية سامية تصدر تعليماتها الى الجمعيات المركزية ، وهذه تبعثها الى سائر فروعها .

اما في المهاجر فترسل كل جمعية مركزية مندوبا عنها الى نيويورك ، وتعين الجمعية المركزية في نيويورك مندوبا عنها . ويؤلف المندوبون لجنة وطنية سامية تصدر تعليماتها الى الجمعيات المركزية في المهاجر ، وهذه تبعثها الى سائر فروعها .

يكون كل فرع حراً في عمله ضمن دائرة مقاطعته ، ولكنه يرجع في شؤون الولاية الى الجمعية المركزية . وتكون كل جمعية مركزية حرة ضمن دائرة ولايتها ، ولكنها ترجع في شؤون الوطن الى اللجنة الوطنية السامية .

تتفق اللجنتان الوطنيتان الساميتان في نيويورك وبيروت على المبادئ السياسية الاساسية ، ثم تكون كل منها حرة ضمن دائرة اختصاصها . ومتى لزم القيام بعمل مشترك تقومان به في وقت واحد بعد المخاطبة البريدية او البرقية .

أما المبادئ الأساسية المشار إليها أعلاه فيجب ان تكون استقلال سورية ولبنان وفلسطين . أما علاقة لبنان وفلسطين بسورية فيترك الحكم في أمرها الى الشعب اللبناني والفلسطيني . فإما أن يكون كل منها ولاية سورية مستقلة بشؤونها الأهلية تعود في سياستها الخارجية الى الحكومة السورية العامة على حد الولايات المتحدة ، أو أن يستقل استقلالاً منفصلاً . وعندنا أن الأول أفضل من الثاني ، ولكن من البديهي أن الفصل في ذلك يعود الى ميل الشعب نفسه وحكم الحلفاء الجازم بشأنه .

يكون كل مندوب في اللجنتين الوطنيتين الساميتين على تراسل مستمر بينه وبين جمعيته المركزية، فتبعث إليه بأرائها فيبسطها أمام اللجنة الوطنية السامية. وتكون قرارات اللجنة طبعاً بأكثرية الأصوات.

متى جاء موعد حكم الشعب في نوع حكومته، يبعث نواباً عنه على نسبة عددية كأن يبعث مثلاً نائباً عن كل خمسين ألف نسمة سواء في ذلك الوطن والجوالي. فيعقدون مؤتمراً في بيروت أو دمشق ويقرون على نوع الحكومة التي يريدونها لأنفسهم.

على الجمعيات المركزية والفروع أن تبشر بالوطنية بواسطة مبشرين ونشرات وعلى صفحات الجرائد، وتحمل على التعصب الديني حملات شعواء، وتكتب مقالاتها بلغة بسيطة يفهمها العامي، وأن تفهم الشعب أنه سيد نفسه وعماد بلاده، وأن الحكم الفاصل في كل شأن وطني هو له ومنه وإليه وأن ترفع منزلته في عيني نفسه حتى يفقه حقوقه. ولكن يجب أن تبين له أن لا حقوق بدون واجبات، وأن الشعب الذي يطلب احترام الغير له عليه أولاً أن يحترم هو نفسه.

يا بني وطني

إذا كنتم لا تصيخون سماعاً إلى نصائح ونصائح المصلحين المخلصين من مواطنيكم فعبثاً تطلبون الحياة الوطنية وعبثاً تعملون. إذا كنتم تريدون أن تكونوا كلكم رؤساء فأين الجسم؟ وإذا كان الجنود يريدون أن يكونوا كلهم قواداً فأين الجيش؟ إذا كنتم تريدون أن تعملوا منفردين فأين القوة؟ وإذا كنتم تريدون أن يسير كل منكم في طريقه فأين الغاية؟ للأجرام السماوية نظام حتى المذنبات منها، وللمواد نظام حتى الغازات منها، وللجماد نظام وللنبات نظام وللحيوان نظام. فهل تريدون أن تكونوا أحياء غريبة لا نظام لها؟ إذا كنتم تعصون شرائع الطبيعة فهي تحكم عليكم بالموت لأنها قاض صارم ولكنه عادل. لا تجربوا الطبيعة لأن من يجرب الطبيعة يجرب الله!

لا تصيخوا سماعاً إلى المتشائمين الذين يقولون لكم ان مصيركم ليس بيدكم، وأن السلاسل المرصعة والأقفاص الذهبية خير من الحرية. لا تصفوا إلى نعيق الغربان، بل انصتوا إلى أصوات الطيور المغردة على أرز لبنان ورياض سورية وأدواح فلسطين تحت تلك السماء الزرقاء الجميلة وعلى قنن الجبال الشامخة وفي بطون الأودية التي تكسو أرضها الخضرة

النضرة وتعلو جدرانها الطبيعية النباتات المتعرشة . اصغوا تسمعوا
تغاريدها في ذلك الوطن الجميل من وراء الأوقيانس وهي تشدو صادحة
«يا رجال سورية ولبنان وفلسطين كونوا أحراراً مثلنا!»

أجل: يا رجال سورية ولبنان وفلسطين كونوا أحراراً كطيورها
الشادية، كونوا أحراراً ولا تخالطوا العبيد ولا تصغوا الى العبيد ولا
تصيخوا سمعاً الى فلسفة العبيد، فهي فلسفة خاسرة جاهلة كلها حماقة!
أجل: لا يكفي أولئك العبيد ان يكونوا عبيداً ويدعوا الى العبودية،
بل يلبسون عبوديتهم ثوباً قشيباً من الفلسفة. اننا نضرب بتلك الفلسفة
عرض الحائط. نريد فلسفة أحرار لا فلسفة عبيد!

البداءة مع الحرية خير من الحضارة مع العبودية. والتوحش مع
الاستقلال خير من التمدن مع الاحتلال.

اذا كان يجوز للرجل أن يكون متوحشاً فبالأولى أن يجوز له ان يكون
مستقلاً. استقلال الأمة حياتها، فمتى سُلبت استقلالها ماتت. وسيادة
الشعب على نفسه حق طبيعي له، فمن يسلبه سيادته يسلبه كيانه
الوطني.

يا بني وطني

لا وقت لنا للجدل والمناقشات العقيمة والآراء السقيمة، فيجب علينا
أن نعمل وأن نعمل بانتظام. حسن ان تنشئ جمعيات، ولكن يترتب عليها
أن تعود الى لجنة وطنية سامية تتكلم باسم الجمعيات السورية كلها. وقد
قلنا السورية اختصاراً من باب تسمية الكل باسم البعض.

لنتفق ولو مرة واحدة في سبيل وطننا المهدى الذي حل به من البلايا
والرزايا ما تهتزله الجبال الراسيات . وهذا الوطن التعس ينادينا الآن
من وراء البحار لنجدته ونصرته، ويستحلفنا بربوعه الجميلة التي رأينا
فيها نور الحياة وبتربته المقدسة التي تضم رفاتنا بعد الممات أن نعقد
الخناصر والقلوب على خدمته خدمة صادقة خالصة من كل شائبة، وان
نتحد اتحاداً متيناً منظملاً لا انفصام له ، خالٍ من حب الظهور ، ومن كل
ضعف يفضي بفريق منا الى تضحية مصلحة الوطن المقدسة على مذب
المطامع الشخصية.

يا بني وطني

يقول بعضهم لكم ان فرنسا ستحتل الوطن. وهم يزعمون أنهم بمثل

هذا القول الزائف يتزلفون الى فرنسا، ولا يفقهون أنهم يفترون بذلك على أعز شيء لديها وهو شرفها^(١). تلك الدولة التي لم تحنث بعهدا ولم تخلف وعدها فهي صديقتنا ومن أجل حبها وسائر الحلفاء استشهد الوطن وهي لم تدخله فاتحة بل منقذه . ولقد رحّب المواطنون بها وبسائر الحلفاء ترحيباً فهي لم تفكر قط في سلبنا حريتنا واستقلالنا ولا تفكر فيه .

صرحت فرنسا غير مرّة أنها لا ترمي الى استعمار الوطن وانها على إتفاق مع بريطانيا العظمى في منح الشعوب المستوطنة شرق البحر المتوسط حريتها وفي عداها سورية ولبنان وفلسطين، وأعلنت قبل دخولها سورية بشهور عديدة انها لا تدخلها غازية ولا تجيئها فاتحة بل تأتينا مواسية لنا وعاطفة علينا . فلا بأس بأن تكون فرنسا مرشدة لنا في طريق الحرية ومدرّبة إيانا على الحكم الذاتي على شريطة أن يكون استقلالنا مضموناً .

ومهما يكن من الأمر، ففصل الخطاب في ذلك لمؤتمر الصلح الذي سيُعقد بعد أسابيع معدودات . فيجب علينا ان نبسط أمانينا لدول الحلفاء حتى تعلم أننا شعب يفقه معنى الحرية ويطالب بها وهو أهل لها . وستكون فرنسا وانكلترا والولايات المتحدة أكثر دول الحلفاء اهتماماً بشؤوننا السياسية والعمرانية لما لها من العلاقة الاقتصادية بشؤونها، ولأنها أعلنت مراراً عديدة من منابر مجالسها النيابية أن تحرير الشعوب الضعيفة في عداد الأغراض التي ترمي إليها بخوضها غمار هذه الحرب الطاحنة . وجاء ذكر سورية صراحة غير مرة في عرض كلام رؤساء

(١) بذل الدكتور سعاده موقفه من فرنسا بشكل جذري، وبدأ حملته على سياستها الاستعمارية في سورية في سلسلة طويلة من المقالات بلغت سبعة وثلاثين مقالا نشرها في جريدة «الجريدة» بعنوان «سورية وفرنسا ومؤتمر الصلح» .

يعترف الدكتور سعاده في مقال بعنوان «السنة العاشرة» كتبه بمناسبة مرور عشر سنوات على إصداره «المجلة» عن خطأ موقفه من الحلفاء أثناء الحرب العالمية الأولى فيقول: «في ذلك الزمان كانت تدور الأماني الوطنية في مخيلتنا كما تدور الصور المتحركة على جدران المسارح . وكنا ننظر الى الحلفاء نظر الغريق الى قارب النجاة . كان كل كسر يصيبهم يملأ قلبنا ترحاً، وكل نصر يحرزونه يملأ نفسنا فرحاً .

أخيراً حصلنا على أمنية قلوبنا، ودخل الحلفاء وطننا، وأقمنا لهم الحفلات التذكارية، والقينا من على المنابر خطباً تاريخية . حينئذ سقطت قشور من أعيننا وأبصرنا الحقيقة كما هي . أبصرنا أننا كنا نعبد بدلا من آلهة العدل والحق والحرية، أصناماً وأوثاناً للظلم والباطل والعبودية» . («المجلة» السنة العاشرة، سان باولو، البرازيل شباط سنة ١٩٢٤ الجزء الأول) .

حكوماتها ورجال سياستها.

لا يطلب منا الآن سوى تذكيرها بالعهود التي أخذتها على نفسها فيما يخصنا، وإن نبرهن لها أننا رغماً مما فينا من مواضع الضعف أهل للاستقلال الذي ننشده. بيد أنه لا بد لنا في هذا المطلب الأخير من الاتحاد التام.

لا تظل فرنسا محتلة الوطن إلا ما تقضي به الضرورة الحربية وإنقاذ البلاد من الفوضى بعد زوال حكم الأتراك البائد وإعادة النظام إليها، وتخويل الشعب الجزم في نوع الحكومة التي يريدها. وكل من يقول لكم أنها عقدت العزم على الاحتلال فهو عدو فرنسا والوطن معاً، لأنه يحاول أن يثلم شرفها وينفر قلوب السوريين منها من حيث يحسب أنه متزلف إليها.

إن فرنسا في صدر الدول التي نعتمد عليها في نيل الاستقلال، وهي تعطف علينا عطف الأم على أبنائها. ولكنها تريد أن يكون هؤلاء الأبناء أهلاً لحبها و صداقتها والأهلية لا تكون بالتزلف وخيانة الوطن لأن من يخون وطنه لا يمكنه أن يكون مخلصاً لوطن سواه.

فرنسا أم الحرية تريد أصدقاء أحراراً. فرنسا أم الوطنية تريد أصدقاء مخلصين لوطنهم. فرنسا أم الاتحاد تريد أصدقاء متحدين.

يا بني وطني

لنتحد ولو مرة واحدة في سبيل أقدس واجباتنا لوطننا، ولننقدم الى هذا الوطن العزيز ونقول له: «يا وطننا المقدس، لقد فرّقتنا التعصبات الدينية وأفضت بنا الى المنازعات السياسية والمشاحنات الاقليمية والاضطرابات الطائفية، فبددنا رجالنا على قتلها وأنهكنا قوانا على وهنها وضحيناك على مذبح أغراضنا الذاتية ومصالحنا الشخصية وفضلنا حب الظهور على حبك ومصالحنا على مصالحك، فكنا كالعميان نتلمس طريق الحياة تلمساً. أما الآن وقد انفتحت أعيننا وبزغ علينا فجر عصر جديد فأننا نتضرع اليك أن تغفر آثامنا وتصفح عن سيئاتنا وعند موطن قدميك ندفن جهلنا وتعصبنا وشقاقنا وتتصافح نحن المسيحيين والمسلمين والدروز واليهود والذين لا دين لهم، ونقسم بك يا من أوجدتنا وربيتنا لمثل هذا اليوم الرهيب أننا نتحد اتحاداً أبدياً سرمدياً لا انفصام له ونكرس حياتنا وقوانا ومواردنا ومواهبنا في سبيلك لأن كل ما لنا منك

ويجب أن يعود كل ما لنا إليك!

«نقسم بك اننا نتحد اتحاداً منظماً وان لا نختار لخدمتك إلا من نعتقد به الكفاءة لها والاخلاص لك، ولا ننصب علينا قادة الرأي العام من الوجهاء لمجرد الوجاهة ولا من الأغنياء لمجرد الغنى، بل نحسب كل غني أو وجيه لا يبذل شيئاً من ماله أو قواه في سبيل حياتك خائناً لك كافراً بنعمتك بل صنماً من الأصنام أو وثناً من الأوثان. وكما كسر موسى العجل الذهبي في البرية وكما قلب المسيح موائد الصيارفة في الهيكل وكما قضى محمد على عبادة العزة واللات في مكة، كذلك نحن نحطم قوى عجولنا الذهبية ونقلب موائد هؤلاء الصيارفة الخونة في هيكلك المقدس ونقضي على عبادة الأصنام قضاء مبرماً!

«نقسم بك اننا لا ندين ونحن في هيكلك الا بدين الوطنية، وإننا نبذل قوانا في سبيل احراز الاستقلال الذي هو حياتك وفي سبيل المحافظة عليه بعد نيله، وان يكون شعارنا الحرية والاخاء والمساواة، وان لا ننصب علينا حكاماً يحابون بالوجوه ولا حكومات تفضل أصحاب دين على أصحاب دين آخر ولا نوايا ليسوا اكفاء للنيابة عنا سواء من الوجهة العلمية أو العمرانية أو السياسية.

«نقسم بك اننا نربي ذريتنا تربية وطنية فنجعلك إلها على الأرض كما ان الله إلها في السماء، فنرضعهم حبك مع لبن الامهات ونجري الوطنية في أجسامهم مجرى الدم في شرايينهم، ونعلمهم ان لهم نوك واجباً مقدساً هو فوق كل واجب وان لهم في ادارة شؤونك حقاً مقدساً هو فوق كل حق، وان حكامهم من اكبر كبير الى أصغر صغير هم خدامهم لا ساداتهم ونوابهم لا متحكمين فيهم، وان لا سيادة لاحد عليهم الا سيادتهم على انفسهم، وان صوت الشعب صوت الله!

«ابانا الذي على الأرض ليتقدس اسمك ليأت ملكوتك لتكن مشيئتك فينا كمشيئة الله في السماء، روح الاتحاد أعطنا اليوم واغفر لنا ذنوبنا كما تغفر نحن أيضاً للمذنبين الينا ولا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير لان لك الملك والقوة والمجد الى أبد الأبدين آمين!»

الحزب الديمقراطي الوطني^(١)

الحزب الديمقراطي أول حزب ذهب الى وجوب استقلال لبنان وسورية وفلسطين استقلالاً تاماً مجرداً عن كل سلطة أجنبية، تكون معه كل بلاد من هذه البلدان بعد اعادة لبنان الى حدوده الجغرافية الطبيعية مستقلة استقلالاً ادارياً تاماً، وتتألف كلها جمهورية واحدة على حد الولايات المتحدة. وأول حزب بسط هذه القضية لمثلي حكومات الحلفاء. فقد كان عاملاً على تحقيق هذه الأمنية قبل كل حزب أو جمعية ظهرت الى الوجود لمثل هذا الغرض، وقبل أن أمطرتنا الجمعيات والأحزاب الأخرى التي تؤمن إيمانه رسائل برقية ونشرات سياسية رحبنا بها ونرحب بمثلها كل الترحيب.

توحيد الأغراض

نقول ذلك لا لنثبت لنفسنا فضلاً، ولا لندعي في خدمة الوطن سبقاً. ولكنها أمنية كنا نسعى الى تحقيقها منذ سنين. ولنا في احراز هذه الغاية مناصرون من أرقى المواطنين في انحاء شتى من العالم الجديد والقديم، نسير وإياهم الى الغرض المقدس الذي نذرنا له نفسنا ووقفنا عليه حياتنا وصرفنا في سبيله قواناً. وسنظل مجاهدين في سبيل الوطن الى ان يقضي الله امراً كان مفعولاً.

لذلك نصافح كل حزب أو جمعية تنحو نحونا وتحذو حذونا، وتجري الى الاستقلال التام المطلق خالياً من كل سيادة شرقية أو سيطرة غربية تحت لفظ حماية أو رعاية أو وصاية أو غيرها من الكلمات المطاطة، التي تريد استعمالها بعض الدول الطامعة في بلادنا التي تسول لها نفسها استعمارنا تحت برقع الانسانية والصداقة والعطف علينا والانشغاف بسواد عيوننا والسير بنا الى الاستقلال التام المطلق أي الاستعمار التام المطلق!

(١) تحت باب «المقالات السياسية» افتتح الدكتور سعادة السنة الرابعة من «المجلة» بهذا المقال عن الحزب الذي اسسه «المجلة»، السنة الرابعة، الجزء السابع عشر، بوانس ايرس في ١٥ شباط سنة ١٩١٩.

لا حياء في السياسة

لا حياء في السياسة كما لا حياء في الدين . فعلينا ان نطرح المجاملات الشرقية جانبا لاننا في موقف خطر خطير جداً يتراوح معه وطننا بين الموت والحياة . فعلى أطباء الأوطان واجب خطير لا يقل قط عن واجب أطباء الأبدان . وكما لا يجوز للفريق الثاني ان يطمئن عليه ويقول له انه مماثل الى الشفاء وهو يدري انه سائر سيرا حثيثاً الى الفناء ، كذلك لا يجوز للفريق الأول ان يطمئن وطنه ويقول له انه جار الى الاستقلال وهو يدري انه سائر الى الاحتلال .

حقوق البرابرة

الاستقلال حق طبيعي لكل شعب وكل أمة تحت الشمس دون قيد ولا شرط . فكما انه لا يجوز منع البربري عن تنشق الهواء لكونه غير متمدن ، كذلك لا يجوز منع الحرية عن شعب لكونه غير متمدن . وكما ان هواء الفرد البربري حياته كذلك حرية الشعب البربري حياته . وكما انه لا يحق لفرد ان يسلب البربري حياته لأنه غير متمدن ، كذلك لا يحق لدولة ان تسلب شعباً بربرياً حريته لأنه غير متمدن . وكما انه لا يحق لك ان تدخل بيت بربري وتقول له انك لا تفقه شيئاً من تدبير المنزل فيجب في هذه الحال ان أحتل بيتك وأعلمك كيف تدبر منزلك ، كذلك لا يجوز لدولة ان تدخل وطن شعب بربري وتقول له انك لا تفقه شيئاً من تدبير وطنك فيجب في هذه الحال ان أحتهل وأعلمك كيف تدبر وطنك !

ان الفرد المتمدن الذي يحتل بيت البربري على الكيفية المذكورة لص متمدن ، والدولة المتمدنة التي تحتل وطن البربري على الكيفية المذكورة لصة متمدنة . ولا فرق بينهما الا في كمية اللصوصية لا في كيفيتها ، وذلك أشبه بحكاية الاسكندر الكبير ان احضروا بين يديه لصا كبيراً فسأله الاسكندر: كيف تجسريا هذا على سلب ملك غيرك؟ فأجاب السارق : إني يا مولاي لست شيئاً مذكوراً بالنسبة الى جلالتك ، فأنا سلبت ملك فرد واحد اما أنت فأعظم لص على وجه البسيطة لانك سلبت ملك العالم كله !

الاستقلال والأهلية

أندهش من الذين يبحثون ملياً في ما اذا كنا أهلاً للاستقلال أم لا، وهم كل الكتاب الذين طرّقوا موضوع الاستقلال بلا استثناء. فمتى كان يا ترى للاستقلال شرط؟ اذا كان يحق للفرد الواحد ان يكون متوحشاً أفلا يحق للشعب الواحد ان يكون متوحشاً؟ اذا كان يحق للبربري ان يجول في الاحراج كالوحوش متخذاً الأرض فراشاً والسماء غطاء، أفلا يحق لجمهور من البرابرة ان يعيشوا كذلك وهم عن هذه المعيشة راضون؟ واذا كان الأمر كذلك فما شأن الدخيل الفضول بينهم؟ واذا كان لا يحق للأمم غير المتمدنة أن تكون مستقلة فلماذا استقل الأفغان؟ ولماذا استقل الحجازيون؟ ولماذا يطلب الأمير فيصل استقلال بلاد العرب؟ ولماذا يصغي المؤتمر الى هذا الطلب اذا كان للاستقلال أهلية؟ كلا! ليس للاستقلال من شرط قط الا ما تضعه القوة القاهرة الجائرة الطامعة في املاك الغير، السالبة الأمم باسم الانسانية، الناهبة الشعوب باسم البشرية، المستعبدة باسم الحرية، الظالمة باسم العدل، المتطاوله على حقوق البشر الطبيعية باسم التمدن، الساترة قفازها الحديدي بقفاز مخملي، المناولة الأمم صكوك الحرية بيسراها وغامدة في قلوبها خناجر الاستعمار بيمنها!

نريد ان ندبر منزلنا بالحق الذي يخول البربري تدبير منزله. ونريد ان نحكم وطننا بالحق الذي يخول البرابرة حكم أوطانهم. نفضل ان نكون برابرة احراراً على ان نكون عبيداً متمدينين.

السوريون أرقى شعوب الشرق الأدنى

بيد أننا نحمد الله أننا لسنا برابرة ولا نصف برابرة، بل شعب متمدن كان أول شعب في الشرق الأدنى تناول التمدن الغربي وعمل به، وأصبح أرقى شعب في أكبر قارة من قارات العالم خلا الشعب الياباني. يحاول فريق من المواطنين ان يظهرنا أمام الأجانب بمظهر البرابرة، واننا لا نصلح لشيء بل اننا وحوش ضارية، فاذا استسلمنا أزمة امورنا انقضضنا بعضنا على بعض وحدثت مذابح عامة وجرت الدماء انهاراً

وتفككت عرى اجتماعنا . اما الفريق الآخر فقد تنازل ورفعنا الى مرتبة البشر ، ولكنه سمأنا أطفالا وضعفاء لا تفقه شيئاً من نواميس العمران ولا ندري مقدار ذرة من التمدن العصري ، فلا بد لنا ان ذاك من ام حنونة ترضعنا لبنها وتكرس وقتها لتنشئنا وتسهر على مصالحنا حبا بسواد عيوننا لأننا أجمل شعب على وجه البسيطة !

ان بين اللبنانيين والسوريين والفلسطينيين فريقاً من أرقى طبقات الهيئة الاجتماعية وأعلامهم كعباً في العلم . فبيننا فلاسفة وعمرانيون وعلماء وساسة وقادة أفكار يصلحون لتدبير ممالك وإدارة شؤون أمم . بل ان منا في اكبر عواصم أوربا من يعد بين أعظم ثقات العلم العصري . اما ان شطراً كبيراً من الشعب السوري لم ينل حظاً من العلم فهذا صحيح ، وهو ما نراه في كثير من الشعوب المستقلة . غير ان هذه الحال تتبدل بعد سنين معدودات لأن الكابوس التركي قد زال عن صدورنا . والأمة لا تنصّب حكوماتها وحكامها من الأميين بل من الطبقة الراقية ، وهي عندنا كثيرة العدد .

السوريون قادرون على ادارة شؤونهم

ان السوريين لقادرون على ادارة شؤونهم بأنفسهم ، ولكننا لسنا من أصحاب الغرور فنقول اننا في غني عن اخصائيين غربيين يرشدوننا في أول الأمر ويسيرونا بنا سيراً حثيثاً في طريق العمران . ان السوريين لقادرون ان يسيروا وحدهم ويتولوا هم شؤونهم دون مساعدة أجنبي على الاطلاق . ولكن من يسير في عربة ليس كمن يسير في قطار مستعجل . فالتعجيل في احراز العمران المطلوب هو الذي يقضي علينا باستخدام اخصائيين أجانب الى ان يقوم فينا اخصائيون منا نحن . ولكننا لا نريد ان يكون هذا الارشاد تحت سيطرة دولة أجنبية ، سواء كانت تلك الدولة اماً حنونة أو اماً جافية .

الاستقلال مع البداوة خير من العبودية مع الحضارة

رفض عبد الرحمن أمير أفغانستان مداخله كل دولة أجنبية في بلاده . ورفض مد السكك الحديدية فيها وانشاء معامل ومصانع على الطريقة

الغربية، خوفاً من أن يتخذ الأجانب هذا الارشاد ذريعة للسيطرة على مملكته. وإذا كان من وراء تدريب الأجانب لنا وارشادنا التحكم فينا وسلبنا استقلالنا، فنفضل ألف مرة ان نكون بلاداً مستقلة متمدة تمدنا شرقياً بحتاً على ان نكون مستعمرة غربية يتحكم فيها الأجنبي بنا ويسلب حريتنا، ويدعي فوق ذلك بقحة ليس من ورائها قحة انه محسن اليينا.

نفضل ان نضيء منازلنا بمصابيح زيت الزيتون، كما كان يفعل أجدادنا، ونحن سادة انفسنا على ان نحول الليل الى نهار بالأنوار الكهربائية الباهرة ونحن عبيد ونفضل ان نقطع المسافات الشاسعة مشياً على الأقدام أو على ظهور الخيل والبغال والجمال ونحن مستقلون ، على ان نقطعها بقطر مستعجلة جالسين فيها الى الموائد ذات الألوان الفاخرة والمشاريب اللذيذة ونحن مستعبدون.

أغراض الحزب الديمقراطي الوطني

تأسس الحزب الديمقراطي الوطني لاحتراز غايتين خطيرتين: اولاهما استقلال لبنان وسوريا وفلسطين استقلالاً تاماً مطلقاً تكون معه كل بلاد من هذه البلدان الثلاث ، بعد اعادة الأولى منها الى حدودها الجغرافية الطبيعية، مستقلة استقلالاً ادارياً تاماً تعود في شؤونها الخارجية الى حكومة جمهورية واحدة على حد الولايات المتحدة. والغاية الثانية الجري في احكامها على الطريقة الديمقراطية العصرية، وازالة الفوارق بين طبقات الشعب، وبسط سلطة الشعب على حكومته، وفصل الدين عن السياسة.

سوف يتابع هذا الحزب جهاده المقدس مهما يكن من أمر مؤتمر الصلح وحكمه في مصيرنا. فان لم ينصفنا رفعنا دعوانا الى محكمة الرأي العام في العالم المتمدن، وأشهدنا السماء والأرض على الدولة المستبدة بنا اننا قوم مستعبدون باسم الحرية، مظلومون باسم العدل، موثقون باسم الاستقلال، مُساء اليه باسم الانسانية ، مُعتدى عليه باسم التمدن .

صك الانتداب

ظهر الآن هذا الصك الغريب العجيب من عالم الخفاء والظلام الى فضاء الوضوح والنور، وسيضعه التاريخ في معارض العصور الآتية بين الآثار الثمينة، الدالة على بربرية البشر الحالية التي نسميها الآن تمدن القرن العشرين.

وكما اكتشفنا آثار رجال العصر الحجري الجديد من محلاتهم ومراقدهم تحت جبال الدور الأخير للعصر الجليدي العظيم، على ما مرّ بك في المقالات العلمية، كذلك سوف يكتشف البشر المتمدنون اللاحقون آثار بربريتنا، تحت جبال العصر الجليدي القادم من محلات ومواقد فرنسا وجمعية الأمم، التي يرون بين رمادها هذا الصك التاريخي العجيب الذي لا يبقى مجالاً للشبهة قط في ان الغوريلا والانسان من أصل واحد. إذا كان هذا الصك مثلاً للعدل البشري عند أرقى دول العالم وشعوب الأرض، فيا ويل البشرية ويا ويل العدل. وإذا كان مثلاً للحرية والديمقراطية، فيا ويل الحرية والديمقراطية.

عرّف المنطقيون الانسان بالحيوان الناطق، أما نحن فنظن ان تسميته بالحيوان الكاتب أدل. لأن النطق قد مرّ عليه الآن زمن طويل وان كان مراد المنطقيين النطق العقلي لا اللفظي، أما الكتابة فأحدث عهداً من النطق. وصك الانتداب أعظم دليل على أن الانسان حيوان ناطق كاتب.

إذا كان أعضاء جمعية الأمم يزعمون ان العدل الطبيعي والاجتماعي يخولهم السيطرة على أملاك الغير والتصرف بها كما يريدون، فليذهبوا الى المدارس ليتعلموا أحرف العدل الهجائية. وإذا كانوا يزعمون ان صك الانتداب للبنان وسورية ينطبق على المادة الثانية والعشرين من عهد جمعية الأمم، رغماً من أن هذه المادة نفسها لا تتفق مع العدل الطبيعي، وجب ارسالهم الى طبيب أخصائي بالامراض العقلية.

ليست عصابة الأمم إلا عصابة تدير رجالها فرنسا وانكلترا، كما وضع ذلك لكل ذي عينين، منذ بداية أمرها حتى الساعة، وكما صرح بذلك كبار رجال السياسة والصحافة في العالم. فعصابة الأمم عوضاً عن ان تكون قسطاس العدل في العالم، وحامية الأمم الصغيرة والشعوب الضعيفة، وناصرة الحق على القوة، والحرية على العبودية، مما يشرف

الجنس البشري في القرن العشرين أمام الأجيال الآتية ويمحو عنه وصمة العار التي وصمته بها دول الاستعمار، كما كان الغرض أولاً من تأليفها يوم اقترح انشاءه الطبيب الذكر الخالد الأثروودرو ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة السابق، أصبحت الآن أعظم ضربة على العدل الطبيعي عموماً والعالم الشرقي خصوصاً لأنها رفعت ظلم البشر واستعبادهم الى مرتبة فن، وسترت اعتداءها على حقوق الشعوب بستار الانتداب والوصاية والمساعدة، وأخرجت لنا تحت ضغط فرنسا صك انتداب يندى منه جبين القرن العشرين خجلاً ويحمر منه وجه العدل حقناً.

أقرت عصبة الأمم الانتداب على لبنان وسورية «لان الدول المتحالفة الكبرى متفقة على انتداب احدى الدول لاراضي سورية ولبنان التي كانت جوءاً من السلطنة العثمانية». فهل يصح صدور مثل هذا القرار الذي لا صبغة عليه من العدل من مثل هذه الجمعية التي نصبت نفسها محكمة عدل سامية؟ وهل يجوز التصرف بأمم العالم وشعوبه وأراضيه لأن الدول المتحالفة الكبرى تريد ذلك؟

وأغرب من كل ذلك ما جاء توأ بعد هذا، من ان تقوم الدولة المنتدبة باسداء النصح والمساعدة لنا، وبارشادنا في ادارة بلادنا. اما معنى النصح والمساعدة في قاموس فرنسا وجمعية الأمم فواضح من المادة الأولى، بأن يكون القانون الأساسي لسورية ولبنان من وضع الدولة المنتدبة. ولكن استدركت هذا الظلم الفاضح بقولها: «ويُعد هذا القانون بالاتفاق مع الحكومة الوطنية». فأني سلطات في لبنان وسورية يصح ان تسمى سلطات وطنية يا أعضاء عصبة الأمم؟ ماذا تركتم لنا من حق التصرف في بلادنا الا أدياننا ومعايدنا وأوقافنا؟ ألنا سلطة على نوع الحكومة التي نريدها؟ ألنا سلطة على التشريع؟ ألنا سلطة على الادارة؟ ألنا سلطة على القضاء؟ ألم تحولوا محاكمنا الى موظفين افرنسيين حتى أصبحنا غرباء في بلادنا حتى في حقوقنا القضائية؟ ألمجالسنا التي تسمونها نيابية سلطة على شيء الا سلطة التمني الذي تشاركها فيه لا البرابرة فقط بل العجماوات أيضاً؟ ألنا سلطة على رجال الأمن في وطننا؟ ألنا سلطة على جيشنا؟ ألنا سلطة على حياتنا؟

كلا والف كلا.. فقد حكمت علينا فرنسا بالاحتلال، ووقعتم انتم

بأيديكم هذا الحكم الظالم يا من نصبتكم أنفسكم قضاة للعدل وأوصياء على الشعوب الصغيرة. فقد جاء في المادة الثانية من صك الانتداب «يمكن الدولة المنتدبة ان تبقي جنودها في الأراضي المار ذكرها لأجل الدفاع عنها».

حكمت علينا فرنسا ووقَّعت بأيديكم حكمها الجائر، بأنه يمكن استخدام الجنود من ابناء لبنان وسورية في سبيل غايات الدولة المنتدبة خارج حدود وطننا، على ما جاء في المادة الثانية، فيمكنها استخدامهم في حرب اوربية ليكونوا وقوداً لمدافع أعدائها، فتضعهم في مقدمة خطوط النار كما فعلت بالجزائريين والتونسيين والمراكشيين والسنغاليين في حرب الامم، فهل بقيت لنا بعد ذلك سلطة على حياتنا؟

ليس ذلك فقط بل «يحق للدولة المنتدبة في كل حين ان تستخدم الموانئ والخطوط الحديدية ووسائل المواصلات في سورية ولبنان لنقل جنودها وجميع المعدات والمؤن ومواد الوقود » كما جاء في المادة الثانية . فأي سلطة تركتم لنا يا من نصبتكم أنفسكم أوصياء علينا؟

ليس ذلك فقط بل « تستطيع الدول المنتدبة ان تضع جميع الرسوم التي تعتبر لازمة من جمركية وغيرها، أو أن تحمل الحكومات المحلية على وضعها » كما جاء في المادة الحادية عشرة. فاذا كان لا سلطة لنا على بلادنا ولا على قانوننا الأساسي، ولا على ضرائبنا ولا على جماركنا ولا على موانينا ولا على خطوطنا الحديدية، ولا على مواصلات النقل ولا على رجال الأمن ولا على رجال جيشنا ولا على مواد وقودنا، فما معنى هذا الاستهزاء بنا وبالعالم وبالتاريخ؟ ان تسموا الذين تقيمهم الدولة المحتلة خداماً لها «سلطات محلية» و«حكومات محلية»؟

وجاء في المادة السادسة عشرة «تنشئ الدولة المنتدبة في سورية ولبنان نظاماً قضائياً». فاذا لم يكن لنا حق في ان ننسب بكلمة قط فيما يختص بقضائنا فكيف يكون لنا سلطة؟

ومن غرائب العدل ان نكون مضطرين الى دفع ما تنفقه الدولة المنتدبة على ادارتنا، دون ان يكون لنا حرية في كيفية هذا الانفاق ولا صوت مسموع فيما نريد نحن عمله في بلادنا. فقد جاء في المادة الخامسة عشرة «حينما يشرع في تنفيذ النظام الأساسي المشار اليه في المادة الأولى، فالدولة المنتدبة والحكومات المحلية ان تتفق على ما يختص بدفع هذه

الحكومات لجميع النفقات التي أنفقتها الدولة المنتدبة على تنظيم الإدارة».

سمعنا بأمر كثيرة انتهك عرضها السياسي، واضطرت بحكم الطبيعة الى الرضوخ للقوة القاهرة. ولكننا لم نسمع قط في طول التاريخ وعرضه منذ ابتداء العالم حتى الآن، بأمة انتهك عرضها السياسي وكانت هي المضطرة الى دفع ثمن هذا الانتهاك. حدث ان امماً اعتدت على أمر أخرى وغلبتها وضربت عليها فوق ذلك الغرامة، ولكن لم يحدث قط ان أمة دخلت بيت أمة أخرى فاستبدت به وخربت ثم قالت لها «ادفعي لي ما أنفقتة على إصلاح بيتك» . وجدت أم أخرى استبدت بأمر وسلبت أوطانها بإسم القوة الوحشية، ولكن لم توجد أمة قط استبدت بأمة أخرى وسلبتها وطنها، ثم طالبت هذه الأمة بنفقات لاصلاح وطنها باسم العدل. ولكن تمدن القرن العشرين أتى بمعجزات وغرائب في العلم، فلا غرو اذا أنانا بمعجزات وغرائب في العدل.

اننا لنشكر عصابة الأمم لاجراجها هذا الصك من عالم الظلمات الى فضاء النور، لأنه فتح عين الشرق كله الى ما يضره له الغرب من الاستبداد والاستعباد ، وفضح عدل أوروبا التي كان يحسبها آلهة الحكمة والانسانية والحرية، فاذا هي صنم عظيم له أعين لا تبصر وأذان لا تسمع وأعضاء لا تتحرك، وسيقذف بهذا الوثن الى لج الاوقيانوس حيث يظل استبداده واستعباده مدفونين الى الأبد.

اننا نسدي أيضاً الشكر الجميل من صميم أفئدتنا وأعماق قلوبنا الى فرنسا، التي أيدت كل ما حذرنا وطننا منه ومنها، منذ شرعنا في الحملة عليها حتى الآن، وأثبتت أقوالنا بأفعالها اثباتاً لا يقبل جدلاً ولا مناقشة ولا تأويلاً . فقد وضع الآن النور لكل ذي عينين بعد المجاهرة بصك الانتداب الذي كانت تحرص سابقاً على بقاءه مكتوماً طي حجب الخفاء ، الى ان تكون قد قضت منا وطراً. أما الآن فقد ثبت الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً.

ان عظام شهدائنا لنتنفض الآن في قبورها ، لأن من الظلم ما تنتفض له عظام الأموات كما تنتفض له عظام الأحياء.

نسدي اليها الشكر من صميم أفئدتنا وأعماق قلوبنا ، لأنها ساعدتنا على نشر الدعوة الوطنية، وكانت وإيانا يداً واحدة في تمهيد الطريق للثورة

الفكرية. فهي الزعيم الحقيقي لنهضتنا العصرية وهي المرشد الأمين الى الميناء الأمين، وهي التي فتحت عيوننا وأيقظت شعورنا وأثارت نفوسنا. فلقد حاولت المانيا وهي في قنة مجدها وشامخ عزها المرة بعد المرة ان تصرفنا عن حب فرنسا، فكان نصيبها كل مرة الفشل التام، اما الآن ومانيا مغلوبة على أمرها مفككة العرى، فقد أخذت فرنسا نفسها على عاتقها هذه المهمة وأفلحت فلاحاً عظيماً.

كما انتشرت المسيحية بالاضطهاد الذي أصابها من الوثنيين، كذلك انتشرت الوطنية السورية بالاضطهاد الذي أصابها من الفرنسيين. فلقد أفادت الاسود والنمورة الجائعة التي كانت تطلق على شهداء المسيحية في مسرح الكوليسيوم التاريخي الشهير في رومية، على مشهد من الرومان، أكثر مما أفاد المبشرون بها في تلك العاصمة. كذلك افاد الاستعمار الجائع الذي اطلقه علينا صك الانتداب على مشهد من العالم المتمدن كله، أكثر مما بشرنا به نحن وبشر به سائر الرصفاء الأحرار. وكما كان دم الشهداء بذار الكنيسة المسيحية، كذلك سيكون دم الوطنية السورية بذار الحرية الشرقية. ان عصاة الأمم الجالسة الآن في كوليسيوم التاريخ، تشاهد صراع الشعوب الضعيفة مع شعوب الاستعمار القوية، كما كان يشاهد الرومان صراع المتصارعين بالمدى والخناجر في كوليسيوم رومية، لا يصدرون احكامهم في الحياة والموت برفع أباهم الايدي وخفضها، كما كان يفعل أولئك الرومان، بل يصدرونها على شكل صكوك انتداب يرد بها « اسداء النصح، والمساعدة والارشاد في ادارة البلدان » طبقاً للفقرة الرابعة من احكام المادة الثانية والعشرين من عهد عصاة الأمم.

اما معنى «النصح والمساعدة والارشاد» في قاموس فرنسا وعصاة الأمم فقد مر بك بيانه، وهو ان تضع فرنسا قانون البلاد الأساسي وان تبقي جيشها الاحتلالي في سورية بحجة المحافظة على البلاد، وان تجند السوريين وترسلهم متى شئت حرب بينها ودولة أخرى ليحاربوا حروبها، وانه يحق لها كل حين ان تستخدم الموانئ والخطوط الحديدية ووسائل المواصلات لنقل جنودها، وان تضع الرسوم الجمركية والضرائب وتتصرف بالقضاء على ما تشاء.

هذا قليل من كثير من معنى «النصح والمساعدة والارشاد»، لأن لها

معاني أخرى لم ينص عليها صك الانتداب، منها أن الهتاف للاستقلال جريمة يعاقب عليها صاحبها بالسجن عشرين سنة كما سجن الدكتور عبد الرحمن شهنيدر ورفقاؤه، ولم يخرجوا من السجن إلا بسبب العفو عن « المجرمين » السياسيين كما قضت بذلك معاهدة لوزان. وأنه لا يجوز إرسال وفود إلى جمعية الأمم أو المؤتمر السوري في جنيف، فمن هم بالذهاب يلقي عليه القبض ويزج في غياهب السجن، كما صرح بذلك ترابو حاكم لبنان السابق الطيب الذكر. وأن الدولة المنتدبة هي التي تتصرف بأراضي البلاد على ما تشاء، كما فعلت فرنسا فيما يخص بحدود لبنان وفلسطين. وأنه يمكن تقطيع البلاد وبتن أجزائها مقاطعات تسمى دولاً، كما جرى في « دول » سورية ثم ضمها بعد ذلك بعضها إلى بعض وجعلها « دولة » واحدة تسمى « دولة » الاتحاد السوري. وأنه يمكن اعتبار كل دولة من هذه الدول مستقلة الواحدة منها عن الأخرى ولكنها مشتركة في دخلها، فلسورية مثلاً حصة من جمارك « دولة » لبنان. وأنه يمكن اعتبار اللبنانيين والسوريين قطيعاً من الغنم، تتصرف فيه فرنسا كما يتصرف الراعي بقطيعه. وأنه يمكن مخالفة كل معقول ومنقول، بل مخالفة أوليات العقل البشري والمنطق، فيقال مثلاً إن سورية مستقلة وغير مستقلة في وقت واحد.

ذكرى ميسلون^(١)

تحتفل الأمة السورية كل سنة في مثل هذا اليوم، لأنه أبرز الأدلة وأنصع البراهين على أهليتها للحرية والاستقلال. على أبواب دمشق عاصمة سورية، شبت معركة ميسلون بين سورية وفرنسا، وخرجت ذلك السهل الفسيح بدماء المستعمرين والمستشهرين على السواء.

ما أجهل الإنسان. في ميسلون وضعت فرنسا بيدها حجر استقلال سورية، وهي تزعم أنها قد قضت على ذلك الاستقلال قضاء مبرماً. ميسلون من أعظم بركات سورية، هبطت عليها في شكل نكبة. ففي

(١) نشر هذا المقال في جريدة « الرابطة » لسان حال « الرابطة الوطنية السورية ». سان باولو، السنة الثانية، العدد ٢٣، في ٣١ تموز سنة ١٩٣٠.

الرابع والعشرين من شهر تموز، يشعر السوريون في كل عام بحياة جديدة تحقق لها قلوبهم وتنور مطامحهم.

يذكرون اعتداء فرنسا على حريتهم. وكيف خضبت سهل ميسلون بدماء أبنائهم، وكيف مشت الى عاصمتهم على جثث قتلاهم، وكيف أعلن قائدها الجنرال غورو بعد بلوغه دمشق ان السوريين الذين يريدون استقلال وطنهم انما هم أقلية أثيمة، أما الاكثرية الساحقة فانما تريد عبودية فرنسا!

يقول قائد افرنسي هذا القول على مسمع ومشهد من العالم المتمدن دون حياء ولا خجل. يقول هذا القول بلا حياء ولا خجل، بعد ان داس في طريقه الى دمشق ستة آلاف جثة من قتلى السوريين الذين ضحوا بدمهم في سبيل استقلال وطنهم.

بذرة الحرية المقدسة زرعت في ميسلون، وهناك روتها سورية بدم قلبها ودموع عينيها، وهناك سوف تنبت وتنمو وتصبح شجرة كبيرة تخيم أغصانها فوق ربوع سورية كلها.

في الرابع والعشرين من تموز تشرب أعناق السوريين كل عام في الوطن والمهاجر الى ميسلون، ويرسلون اليها أبصارهم، وتطير اليها أرواحهم، ترفرف فوق أضرحة شهدائهم وتمتزج أرواح الأحياء بأرواح الشهداء.

في الرابع والعشرين من تموز، ضربت العبودية على سورية بإسم الحرية، ونشرت رايات الاستبداد على بكرة أبيهم، يطلبونها وصية عليهم لتكون أماً حنوناً لهم.

بالسيف والمدفع والطائرات والغازات السامة والقنابل المتفجرة أعلنت الأم الحنون وصايتها على سورية، اجابة لرغائب السوريين أنفسهم. الرابع والعشرون من شهر تموز يوم يقدس عند السوريين كلهم. ففيه يصمتون أمام أرواح شهدائهم التي يقدسونها، وفيه يشعرون بالتضحية السامية التي قطعوها من أفلاذ أكبادهم وأشطر قلوبهم وقدموها ذبيحة على مذبح الحرية المقدسة.

أجل: وسط الدم والنار وأجسام الجرحى وأشلاء القتلى، ووسط بروق البارود ولعلعة المدافع وزيز الرصاص وأصوات الطائرات المنكرة والدبابات المكورة، جرت فرنسا الى وصايتها على سورية، لتبرهن للعالم ان

السوريين كلهم يطلبونها وصية عليهم.
كلما ذكر السوريون ميسلون ذكروا معها عنوان التضحية الخطير وبطل الوطنية الكبير، ألا وهو الخالد الأثر يوسف العظمة، قائد الجيش السوري في ذلك اليوم العصيب ، الذي جرى الى المعركة ممتطياً مطهمة وهو يعلم انه سائر الى حتفه ، وصمد لعداء في أبرز مكان من المعركة، وهو هدف لقنابل المدافع وكرات البنادق تطلق عليه من كل جانب، وهو ثابت على سرج فرسه بأسم في وجه الموت، مما كان داعياً الى اعجاب جنوده واندھاش أعدائه، وظل كذلك منذ الصباح حتى المساء، والرصاص يتساقط حوله تساقط المطر، فلما غابت الشمس غاب هو أيضاً كأنهما كانا على موعد .

وسقط بطل سورية وعنوان مجدها مضرراً بدمه في ميسلون ، ونقش اسمه بأحرف بارزة على صفيحة المجد الخالدة .
وهناك في بقعة من بقاع ميسلون دفن الرجل العظيم، وأصبح ضريحه الآن مزاراً مقدساً لكل عابر سبيل في ميسلون، من أحرار الوطنيين والأجانب على السواء، الذين يقصدون البطولة ويمجدون الأبطال ، فضلاً عن انه أصبح مزاراً يؤمه السوريون من جميع الأقطار. وما أزال أذكر حكاية تلك السيدة الاميركية التي مرت بميسلون في طريقها الى دمشق، فلما أبصرت ضريح العظمة، سألت دليلها عنه، وفي أثناء عودتها من دمشق أحضرت معها إكليلاً جميلاً، وضعته على القبر إكراماً لبطل الحرية وقائد جيش سورية . واذا كانت متدينة، فالراجح انها ركعت أمام الضريح المقدس وأصعدت من قلبها صلاة الى إلهها.
ماذا قالت له؟ لا أدري...

شقاء لبنان في طوره الجديد^(١)

ما يزال لبنان منذ بدء الاحتلال حتى الآن، يعاني من ضروب التعاسة أشكالاً وألواناً، فهو ينتقل كل عام من سيء الى أسوأ، ومن نكبة الى نكبة عظمى. فمنذ اعلان الجمهورية حتى الآن، ما زال يرتفع الى أسفل

(١) المقال الأخير الذي كتبه الدكتور سعادة قبل وفاته بثلاثة أيام . ونشر في جريدة « الرابطة » ، سان باولو ، العدد ٢٢٦ ، في ٧ نيسان سنة ١٩٢٤ .

ويتقدم الى الورا. ولقد أقلقت هذه الحال المثلث الرحمات البطريك الحويك ومزّرت حياته، حتى اضطر غير مرة الى مخاطبة رجال الانتداب وقومندان الدوائر الفرنسية التي رست في بيروت بكلام قارص، يدل على ما في نفسه من الأسف الشديد والألم العميق، خصوصاً لأنه توجه الى باريس طالباً بسط انتدابها على لبنان، فجاءت الكوارث وجاءت النكبات وجاءت الضرائب الفاحشة، وجاء الفقر والعجز المالي ونهب الذهب وتدفق البضائع الأجنبية، وقلة الصادرات الوطنية قلة مدهشة، واشراف البلاد على الافلاس التام والضيق العام في طول لبنان وعرضه، كأنه في زمن الحرب والمجاعة.

منحت فرنسا لبنان الجمهورية، في يوم ضيقها وشدتها، وهو يوم شبوب الثورة السورية، حتى لا يخطر له في بال الانضمام الى الثورة، وحتى ترى سورية ان البلاد التي تخلد الى السكينة، تكافأ مكافأة كبيرة. وهكذا جرى ذلك الاحتفال الفخم أمام البحر المتوسط، حيث أعلن غورو استقلال لبنان وسط عاصفة من التهليل والتصفيق، والحقيقة انه لم يعلن إلا استقلاله عن سورية.

في تلك الأثناء، انشأوا للبنان السيء الطالع رئيس جمهورية يشغل كرسيها، ورئيس وزارة ووزراء كثيرين، ومجلسي نواب احدهما للامة والآخر للشيوخ، ومجالس مديرين وحكاماً ومستشارين فرنسيين ومحاكم مختلطة، الى غير ذلك من الضربات والبلايا المتعددة، حتى أصبح لبنان الذي لا يزيد عدد سكانه عن نصف سكان مدينة سان باولو، مساوياً في وزرائه ومجالسه لدولة فرنسا، حتى قصمت هذه النفقات ظهره، ووقع في ضيق قبض على خناقه، وفي فقر وجوع لم ير لهما مثيلاً منذ أيام حرب الأمم.

ظل لبنان أثناء تلك السنين على جاري عادته، ساكناً صامتاً لا يرفع صوتاً ولا يفوه باحتجاج، حتى ملأت آلامه وأناته الجو، وحتى رأى الذين طلبوا الانتداب الفرنسي قبل الذين رفضوه واحتجوا عليه، ان هذا الجحيم لا يمكن احتماله ولا الصبر عليه. فكان ما كان من احتجاج البطريك الحويك على ممثلي الانتداب المرة بعد المرة على مائدته، ساعة يظهر فيها المضيفون والضيوف عواطف الصداقة والاخاء والوداد، فكانت الأنخاب على المائدة وسيلة لاطهار ما كان في صدر المثلث الرحمات

الحويك من المرارة على حال وطنه السيئ الطالع، والندامة على المشادة التي بذلها في سبيل الانتداب، زاعماً أنه سيكون للبنان عصراً ذهبياً، فاذا هو أسوأ عصر مرّ عليه في حياته، وإذا هو مملوء بالتعاسة والشقاء والمرارة.

لم يغير الفرنسيون رغماً من كل ذلك شيئاً من أساليبهم السقيمة وسياستهم العقيمة، فظلوا يجازفون بلبنان وسياسته وتجارته واقتصادياته وضرائبه وإرهاقه بضروب الاستبداد والاستعباد، حتى ضجّت الأرض والسما من هذه الحال التي لا تطيقها الطبيعة البشرية. ولولا حدوث أمر غير منتظر لم يكن في الحسبان، لظل ذلك النظام الجنوني على ما هو عليه في المجازفة والتبذير والاسراف حتى الآن.

ان الأمر غير المنتظر الذي حدث، إنما هو المباراة العنيفة التي حدثت لاحراز رئاسة الجمهورية. وقد كانت هذه المباراة على أشدها بين المسلمين والموارنة، وقد ظهرت بوادر النجاح للأولين اذا ظلت الحال على منوال الانتخابات. ولما كان المفوض السامي يرى ان تلك النتيجة تقضي الى حدوث صدمة عصبية في بعض المراكز العالية التي يهيمه أمر المحافظة على شعورها، رأى ان يضع حداً لرواية الجمهورية اللبنانية، ويعلن الغاءها والغاء الوزارات بحجة الاقتصاد. وعين رئيس الجمهورية رئيساً لحكومة شاذة أطلقوا عليها اسم حكومة اصلاح، لتبقى حيناً من الدهر تكافح التعاسة والشقاء، وتجاهد في سبيل اصلاح ما أفسده العهد الماضي بجنونه وتبذيره واسرافه، فسقطت هي أيضاً تحت أنقاضه.

جاء الانتداب بعد هذا كله وزاد الطين بلة والذل مذلة، فأعطى أولاً الكونت دي مارتل أمراً بأعطاء مندوبيه ومستشاريه الفرنسيين في حكومة لبنان السيئ الطالع، الحق الأول في إجازة المعاملات والمخابرات كلها، سواء في المجلس النيابي أو في معاهدة الحكومة المركزية والمحافظات الادارية. هو ضربة قاضية على ما لا يزال للبلاد من استقلال اداري، إذ أصبح اولئك المستشارون، فضلاً عما للمندوب السامي من السيطرة، مندوبين مسيطرين آخرين على المعاهدة العامة، فلا يمكن انجاز أمر في دوائر الحكومة إلا اذا تنازلوا الى الرضى عنه. ومن البديهي ان جمهورية هذا نظامها وهذا برنامجها وهذا مجلس نوابها وهذا حكمها الوطني لا قيمة لها على الاطلاق. ويكفي ان نورد في هذا الموقف مثالا

لذلك ، الأمر الذي أصدره بهذا الصدد المفوض السامي ، ونصّه كما يأتي :

«يقرر المفوض السامي للجمهورية الفرنسية ان للمستشارين سواء كانوا في دوائر الحكومة اللبنانية أو في دوائر المحافظات ، الحق بالوقوف على الشؤون والمخابرات الرسمية في المصالح اللبنانية والتعليق على كل معاملة تعود الى الادارة بمسؤولية ، وإن مندوب المفوضية العليا الذي يحضر جلسات مجلس الحكومة ومجلس النواب ومجلس المديرين ، وكلامه واجب الاصغاء اليه عندما يطلب الكلام ، مفوض اليه تنفيذ هذا الأمر» .

كان بعد هذا كله ان المفوض السامي عين رئيس الجمهورية تعييناً لمدة سنة ، بعد ان كان أشغل كرسيه بطريق الانتخاب الى أجل معين . ولم تقف إهانة الجمهورية عند هذا الحد ، بل كان للبنان دستور جعل السلطة محصورة في مجلس النواب الذي يمثل الشعب اللبناني . بل ان النظام الزائف الجديد أخذ قسراً هذه السلطة من أيدي النواب وجعلها في يد أصحاب السلطة الحقيقية من الفرنسيين الذين يقبضون على أزمة الأحكام ويديرون شؤون البلاد كما يعنونهم . وكان فوق ذلك في البلاد حكومة مسؤولة ، عليها ان تقوم بتقديم أعمالها الى مجلس النواب . أما الآن فانها تجاه سلطة تنفيذية غير مسؤولة تؤيدها قوة الاحتلال ، وتجاه سلطة تشريعية لا قوة لها على الاطلاق ، بل هي والقوة التنفيذية تحت أمر السلطة الفرنسية الاستبدادية .

أليس من المستنكرات ان لا تكون الجمهورية اللبنانية والدستور اللبناني ، رغمًا مما كانا عليه من مواطن الاستبداد والاستعباد ، أشرف وأرقى بكثير مما هما عليه الآن؟! فنحن نتقدم الى الورا بمناصرة الانتداب تقدماً عجيبياً ، لا غرو ان تحسدنا عليه الشعوب الاخرى! ومن غرائب المجلس اللبناني ان الحكومة عينت سبعة من أعضائه تعييناً ، وانه عندما ابتدأوا بانتخاب الرئيس ، كانوا يضعون في يد كل نائب ورقة مكتوب عليها اسم شارل دباس ، بناء على أوامر صادرة من المفوض السامي !

الى متى تظل فرنسا سائرة في لبنان على الاستبداد الجائر والاستعباد الهائل؟ لا أدري ولا أحد غيري يدري.. ومن أمثلة ذلك ان بين الأوامر

التي أصدرتها الحكومة الجديدة، أمراً يقضي بأن يوقع المستشار صاحب العلاقة في الأمر المرسوم مع رئيس الدولة، ولا يؤذن للرئيس ان يصدر مرسوماً، الا اذا وافق أولاً عليه المستشار الفرنسي، وهي حال أسوأ جداً من عهد الحكم المباشر، لأن رأي المستشار كان حينئذ استشارياً فقط.. بل ان كثيراً من الشؤون لم تكن تعرض إذ ذاك على المستشار.

مؤلفات الدكتور سعادة

كتب الدكتور خليل سعادة على امتداد اكثر من نصف قرن العديد من الابحاث معظمها لا يزال دون تصنيف. اما كتبه المنشورة فهي التالية:

١- الروايات

- الأمير مراد أو الأمير السوري. رواية بالانكليزية صدرت سنة ١٨٩٣ دون ذكر اسم الناشر، عربت وصدرت عن دار فكر - بيروت سنة ١٩٨١.

- قيصر وكليوبطرا. رواية بالانكليزية صدرت في لندن سنة ١٨٩٥ عن دار Edwin vaughan. عرب الدكتور سعادة هذه الرواية، ونشرها في سان باولو، البرازيل سنة ١٩٢٥.

- أسرار الثورة الروسية. رواية بالعربية صدرت عن مطبعة التمدن في القاهرة سنة ١٩٠٥.

- انطونيو وكليوبطرا. رواية بالانكليزية والعربية كتبها الدكتور سعادة اثناء اقامته في البرازيل، ونشر بعض فصولها في مجلة «المجلة». ولم تنشر في كتاب مستقل.

- أسرار الباستيل. رواية بالعربية صدرت في القاهرة سنة ١٩٠٦.

- الشركسية الحسناء. رواية بالعربية صدرت في القاهرة سنة ١٩٠٨.

٢- كتب أخرى

- الوقاية من السل الرئوي وطرق علاجه. كتاب طبي صدر عن مكتبة المعارف في القاهرة سنة ١٩٠٥.

- قاموس سعادة. الانكليزي - العربي، صدر في القاهرة سنة ١٩١١.

- نبلة في كنانة. رد على أصحاب «المقتطف». نشر في اسطنبول سنة ١٨٨٣.

- الطوالع السعدية في آداب اللغة الانكليزية. صدر عن المكتبة الشرقية في القاهرة سنة ١٨٨٦.

- الرابطة. مجموعة من المقالات والابحاث المختارة جمعها وقدمها السيد نواف حردان. صدرت في سان باولو البرازيل سنة ١٩٧١.

٣ - ترجمات

- انجيل برنابا. ترجمه عن الانكليزية، وصدر عن مطبعة «المنار» في القاهرة سنة ١٩٠٧، مع مقدمة للشيخ رشيد رضا.

- «رواية ابائثيا». ترجمة عن الانكليزية، للروائي الانكليزي شارلز كنغسلي.

أُنشئت المجلة لتكون صلة بين الأوطان والجوالي اللبنانية والسورية ولسان حال النهضة العصرية

المجلة

صحيقتنا

سياسة بلا تحزب علم بلا تعصب انتقاد بلا محاباة

صاحبها ورئيس تحريرها
الدكتور خليل سعادة

LA REVISTA

POLITICA - CIENCIA - CRITICA

FUNDADOR Y JEFE de REDACCIÓN

Dr. K. SAADEN

San Martin 983 - Buenos Aires

تصدر مرتين في الشهر

بدل الاشتراك السنوي

في الأرجنتين ١٢ ربيلا - في الخارج ٣٥ فرنكا

السنة الاولى

ثاني ١٩٧٣

AL-JARIDA
Dr. Saadeh
Florencio de Abreu, 24 A
Telephone Central 2428
End Telegr. ALJARIDA

سان باولو ني ٢٧ تموز ١٩٠١

حضرة الصديق العزيز

اصنك بز فانت وار جوبك ولوروك
عينا رعدنا و مستقبلا سعيدا و اخذنا ايضا
بش عريتك فنتد كان لتصيدتقن الجريدة و مع
جميل عند تراها من ان جرائد الارضين و طلب
منك ان ثوانيها بس من شعرك فطلبه كتاب
من جريدة الاتحاد اللبناني اظنك تطلب به منك
تقصيدة لعددها الممتاز و قد بنيت بشده ايضا الى
ضديتها انشعر القروى و اقبل من الختام نريد
تحيات راجية تقديم احراس نصيبك النافعة
ولا رجعي على ما تريدان من الصنا والهناء

المنه

الدكتور سعادة
م

رسالة الدكتور سعادة للشاعر فرحات

٢٦٦

رواية ر. سعاد
مؤيد
لما كان

الرواية التاريخية

في
قصة
الرواية

٤٨٩٠٤

٢٦٦

رواية تاريخية عصرية



« تأليف »

الدكتور خليل بك سعاد

٢٦٦

« حقوق الطبع والترجمة محفوظة المؤلف »



« مطبعة المحدثين بمصر سنة ١٩٠٥ »